محمد عصمت

ما يروى في الظلام

أساطير زهرة الجبل

رواية ما يروى في الظلام:

اساطير زهرة الجبل

محمد عصمت

(٥)

لا يعد كل ما يروى في الظلام مجرد خرافات وأساطير

لا أساس لها من الصحة، وليس هناك ما يثبت أن تلك الأساطير خيالية، فكم من حكايات تخيلنا أنها مُجرّد ضرب من الخيال، قبل أن نصطدم لاحقًا بواقعها المرير لنجد أن الحقيقة قد تكون أشد طرًا أو قبحًا من الخيال.

في قلب الليل البهيم، حيث تختفي النجوم وراء الغيوم الكثيفة، ركض حامد في قلب حقل مظلم تحت نور القمر الخافت. تقطعت أنفاسه، وامتلأت عيناه بالذعر، تلفت حوله في رُعب، وقد فقد إحساسه بالاتجاهات، لم يعد يذكر من أين جاء، وإلى أين يهرب وبدا الحقل الواسع في عينيه كبحر من الظلمة، يتموج تحت ريح عاتية.

تمايلت سيقان الذرة بقوة في وجه الريح، ووقف بينها محاولا تحديد موقعه، لكن المكان بدا مرعبا في تشابهه، فاليمين يشبه اليسار، والأمام مطابق للخلف والظلام يلف كل شيء في حرملته السوداء.

قبل أن يفيق من حيرته، رأى زوجا من العيون الحمراء تخترق قلب الظلام، وتظهر من أمامه كجمرتين متقدتين تراجع للخلف، اقتربت العيون الحمراء الدموية لتلوث عتمة الظلام، ومن خلفها ظهر كلب شرس ضخم البنية يتقدم بخطى متئدة وأنفاسه المتلاحقة، وزمجرته المخيفة تمزق سكون الليل.

استدار حامد، وركض بخطوات واسعة اهتزت الأرض تحت قدميه، وقد بدت كل خطوة يقطعها وكأنها تستهلك آخر ذرة من قواه، تدفق الأدرينالين في عروقه، واعتصر الخوف قلبه بقبضة قوية، تخلى عن صندله الجلدي، وزاد من شرعته، سمع أقدام الكلب وهي تضرب الأرض من خلفه، لكنه لم يتوقف، ولا ينوي التوقف.

ثم واتته فكرة فغير اتجاهه سريعًا، متجها نحو اليمين بشكل حاد، قبل أن يستدير للخلف ويواصل الركض، معتقدا أنه ربما يمكنه بهذا التغيير المفاجئ الهروب من الكلاب الشرسة، لكنه للأسف شرعان ما

وجد نفسه يتيه في دوامة من الاتجاهات المبهمة.

تجاهل هذا الشعور مؤقتا، مستمرًا في ركضه المحموم، شعر بأن خطوات الكلب قد ابتعدت عنه قليلا، مما يعني أنه كان محقًّا! لقد نجحت خطته!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة عابرة، لكنها لم تستمر سوى للحظة واحدة، قبل أن يشعر بقدميه تتعثران في بركة طينية، حاول جاهدًا أن يُحافظ على توازنه، لكن دون جدوى، زُلْت قدمه وتعثر بشدة، فوجد نفسه يفقد توازنه ويسقط أرضًا بقوة.

حاول الاعتدال بصعوبة، تأوه بشدة جراء السقوط، اعتدل، ومسح الطين عن وجهه وعينيه بكم جلبابه تلفت حوله بعينين سكنهما الخوف، ورأى قطيع الكلاب يحاصره من كل حدب وصوب والبخار يتصاعد من أنفاسها في الهواء البارد، اعتدل دون أن ينهض تماما، محاولًا القيام ببطء، دون أن يثير حفيظتها.

بعد لحظات نهض واقفًا على قدميه المتعبتين محدقا في عيني الكلب الذي يبدو وكأنه قائد القطيع تراجع للخلف ببطء شديد فجأة.. استدار وانطلق

يركض بين سيقان الذرة بسرعة، تبعته الكلاب عن كتب هذه المرة.

نظر للخلف لبرهة، فرأى الكلب الضخم يستعد للقفز أدرك ما سيحدث، واستعد له، وفي اللحظة التي قفز فيها الكلب، غير من اتجاهه بمكر، وانطلق يسارًا، سقط الكلب أرضًا، وواجه صعوبة في التوقف بسبب الأرض الطينية الزلقة. حاولت بقية الكلاب متابعة المطاردة لكنها تخبطت في بعضها البعض.

ضاقت أنفاسه، وآلمه حلقه. وجد صعوبة في التنفس، وصعوبة أكبر في الاستمرار في الركض، لكن توقفه الآن، يعني أن يلقي حتفه بين براثن تلك الكلاب الضالة، وهكذا كان الخوف من الموت هو الوقود الذي يحركه للاستمرار في الركض قليلًا بعد، وقلبه ينبض بشدة تحت ضوء القمر الخافت.

وكأن الطبيعة من حوله قد تآزرت مع الكلاب محاولة الإيقاع به لطمته سيقان الذرة في وجهه وكأنها أيدي معادية تسعى لإعاقته، وجرحت أوراقها وجنتيه، تجاهلها وهو يركض رفع كم جلبابه المبلل ومسح العرق عن جبينه، لا يعرف أهو عرق ناتج عن

المجهود جزاء كل هذا الركض، أم هو عرق بارد ناتج عن الخوف العميق الذي يعتمل في قلبه.

ركض بسرعة تلاحقت أنفاسه وتعالت زمجرات الكلاب من خلفه. تباطأت شرعته، وبدأ ينشج بعنف. لم يعد قادرا على الركض، فحتى الخوف من الموت لم يعد يجدي نفعًا كوقود للحركة، وإن كان من الموت بد.. فليواجهه كرجل شجاع ركض قليلًا حتى وجد نفسه في قلب بقعة خالية من أي سيقان ذرة فارغة كقلب شاب وحيد، وقف في منتصف البقعة الخالية، وأنفاسه تعصف بصدره بعنف ليتردد صداها في صمت الليل الرهيب واستدار المواجهة قطيع الكلاب.

حاصرته الكلاب، دارت من حوله في نصف دائرة زمجرت بعنف، كاشفةً عن أنيابها، والزبد يسيل من أشداقها، اقتربت منه، لم يعد يقوى حتى على التراجع.

أغلق عينيه، واستسلم للهجوم القادم، ودمعة وحيدة تخون عينه اليسرى وتسيل على وجنته ببطء.

فجأة.. ودون سبب واضح.. سمع صوت أنين مليء بالخوف، فتح عينيه، ورأى الكلاب تتراجع أمامه بخوف، تراجعت قليلا بخطى مرتبكة، قبل أن تستدير وتركض فزعة، وكأن الموت يطاردها.

شعر بزخم من الشجاعة يتدفق في عروقه، ورغم ارتجاف جسده، إلا أنه تقدم خلفها وهو يصرخ "اركضوا .. اركضوا قبل أن أقتلكم جميعًا."

تردد صدى صوته في فضاء الليل الساكن.

انتفخ صدره بشيء من الزهو، ورغم أنه ما زال يجهل سبب خوفها، إلا أن هروبها من أمامه كان كافيًا.

استند إلى ركبتيه، مستسلمًا للإرهاق، وتنفس بصعوبة، بدأ صدره يرتفع ويهبط كموج البحر، وقبل أن يعتدل، سمع صوتًا عذبًا يُناديه من ورائه، صوتًا أنثويا يناديه بنغمة ساحرة:

"حامـد!".

انتفض جسده، وتسارعت نبضات قلبه، وتذكر الأساطير التي اعتادت جدته أن ترويها له مساءً، عن النداهة، تلك الأسطورة التي سكنت أعماق وجدانه فكر جزء منه في الركض، لكن آلام قدميه، وصدره

أخبرته بكل وضوح أنه لن يبتعد كثيرًا، لم يلتفت للخلف، لكنه رأى بصيصًا من النور الأخضر الخافت يظهر من خلفه ليبدد عتمة الظلام قليلا، بينما تكرر النداء مرة أخرى:

"حامـد!".

استدار ببطء ورآها، فتاة شابة جميلة بشكل لا يوصف ترتدي فستانا أبيض اللون، مُمزّقًا من بعض الأماكن، مما يحكي قصصًا منسية، وملونا بدماء جافة من أماكن أخرى، وكأنها خرجت لتوها من قلب أسطورة قديمة.

تمسك في يدها مصباحًا يحتضن نارًا خضراء، تتمايل في الهواء كأرواح ضائعة، لكنها مرعبة للغاية، تكرر النداء مرة أخرى، وإن كان هذه المرة بصوت أجش مرعب:

"حامـد!".

خر على ركبتيه وهو ينظر إليها بخوف لم يعرف له مثيلًا من قبل ارتعد جسده بشدة، انزلق العرق على وجهه، وتصاعد البخار من أنفاسه في الهواء البارد

حاول أن ينطق بأي كلمة، لكن الخوف المستشري في أوصاله أفقده القدرة على الحديث.

اقتربت منه مدت يدها الباردة، وأمسكت بعنقه، أحاطت عنقه بقبضة قوية حاول التنفس، لكنه لم يستطع، ضاق صدره، حاول بشدّة، لكن دون جدوى.

وقبل أن تعتصر عنقه، اعتصر الخوف قلبه، ومات المسكين بين يديها مات خوفًا ورُعبًا، وعلى ملامحه ترتسم أعتى أمارات الفزع.

تركت جسده يسقط أرضًا، وابتسمت، رمقته بنظرة أخيرة، قبل أن تستدير وهي تناديه بصوتها المرعب:

"حامـد!".

"حامـد!".

"حامـد!".

اختفت بين سيقان الذرة، التي توقفت عن الاهتزاز وكأنها ترتجف خوفًا على ما شهدته لتوها، ابتعد ضوءها الأخضر الخافت رويدًا رويدًا، والصمت يوطد أواصر مملكته على المنطقة، تاركًا جثة هامدة في منتصف حقل الذرة.

جثة حامد المسكين الذي مات رعبا بين يدي النداهة!

(1)

اهتز القارب على سطح الماء، متمايلا برفق مع نسمات الليل، عندما عدل مروان من جلسته في مؤخرة القارب، رفع ناظريه للسماء، حيث اختبأ القمر خلف ستارة من السحب الرقيقة، تأمل النجوم التي تناثرت يمنة ويسرة على صفحة السماء الواسعة.

استنشق هواء الليل البارد بعمق، حتى ملأ صدره وأزكمت رائحة اليود أنفه، سعل بخفوت.

التفت المراكبي وتأمله بعينين عسليتين ناعستين قبل أن يسأله: "هل أنت بخير يا أستاذ مروان؟."

أومأ مروان برأسه، ورسم على شفتيه ابتسامة خفيفة، وقال: "الحمد لله يا عم سليم، آسف، فقد تأخرت كثيرا اليوم."

أجابه الرجل بابتسامة تعكس الود والتفهم: "لا بأس يا بني سأنتظرك مهما تأخرت. فهذا القارب هو سبيلك الوحيد لدخول الجزيرة، وليس هناك من يمكنه قيادته سواي."

أجابه المدرس: "كنت أود القدوم في الصباح، لكن أطفال الجزيرة ينتظرونني ليتلقوا دروسهم الأسبوعية في الصباح الباكر."

تنهد المراكبي، وأرسل نظرة نحو الضفة البعيدة، ثم قال: "جزيرة زهرة الجبل، تلك الجزيرة الوحيدة في قلب البحيرة التي لا يُغادرها أبناؤها، ولا يدخلها غريب سواك يا بني. نظر لمروان، وتابع حديثه قائلا: لولاك يا صديقي، ما تعلم أطفال الجزيرة حرفًا، فنحن لا نملك أي مدرسة، وأقرب مدرسة لنا تقع على بعد ساعتين تقريبا في جزيرة مجاورة، ولهذا ترفض أسرهم إرسالهم إليها."

شعر مروان بقليل من الحرج يتسلل إلى وجهه، فقال: "هذا واجبي يا عم سليم، لقد تعلمت لأعلم، كما أنني كنت أحد أبناء قرية صغيرة من قرى محافظة المنوفية، ولم يكن هناك مدرسة في قريتنا، وهكذا توجب علي السفر لما يُقارب الساعة تقريبا، قاطعًا طريقي بين الحقول والتلال لألتحق بأقرب المدارس إلينا، وهكذا أعرف قيمة العلم، وأعرف أهمية قدومي إلى هنا، ولو ليومين أسبوعيًا لألقن أطفال الجزيرة

دروسهم."

قهقه المراكبي العجوز ضاحكًا، والبخار يتصاعد من بين شفتيه في هواء الليل البارد، قبل أن يقول: "من حسن حظك أنهم أربعة أطفال فحسب، وإلا جننت من شقاوتهم."

ابتسم مروان وهو يقول : "رغم أن سنهم متقارب من بعضهم البعض، إلا أن شخصياتهم مختلفة تمامًا، وهذا ما يجعلني أحبهم كثيرًا، فكل منهم يحمل عالمه الخاص بين ضفاف شخصيته الفريدة."

ابتسم المراكبي العجوز، ونظر للأمام متفحصًا سطح الماء الهادئ للحظة، ثم استدار نحو مروان الذي ألقى الفانوس القديم المعلق ونيرانه التي تتراقص بين جدرانه الزجاجية، بالضوء على وجهه، وقال بتقدير: الغريب يا بني أنك تتحمل تلك الظروف القاسية وتدرس كافة المواد، بل وتبيت في الجزيرة ليومين بشكل أسبوعي". تنهد بحزن عميق قبل أن يضيف: ولم تهرب مثل سابقك الذي لم يتحمل هذه الظروف واعتذر."

أجابه مروان بلطف لكل منا ظروفه، الله أعلم بما دفع الرجل للاعتذار."

بدا أن الإجابة لم تعجب المراكبي العجوز، الذي هز رأسه بصمت، قبل أن يستدير ليراقب ضفة الجزيرة التي بدأت تظهر بوضوح مع تقدم القارب الصغير حاول مروان تلطيف الأمور قليلا، فقال: "ما أردت قوله هو أن الوزارة تعاني من نقص حاد في المدرسين، وقد طلبوا منا التطوع للقدوم إلى هذه الجزيرة، بالطبع دون أي حوافز أو مكافآت، وهو ما دفع العديد من الموظفين للهروب من تلك الوظيفة". أجابه المراكبي دون أن يلتفت إليه: "لكنك لم تهرب."

ابتسم مروان وقال وهو يضم ياقة معطفه قليلًا، ليقي نفسه برد الليل: "فاقد الشيء يُعطيه يا عم سليم، أنا أكثر من يعرف صعوبة الحرمان من التعليم وهكذا أدركت أن هروبي سيحرم هؤلاء المساكين من فرصتهم في التعليم، وهكذا تقدمت بطلب للوزارة بالقدوم إلى هنا مرتين أسبوعيًا، وتدريس أربعة مواد وجمع الأطفال الأربعة في فصل دراسي واحد، بغض

النظر عن اختلاف عمرهم"

سادت لحظة من الصمت المهيب تذكر فيها مروان الصعاب الجمة التي واجهها في طفولته ليصل إلى مدرسته حيث خلت قريته النائية من أي أثر للسيارات، مما اضطره هو ورفاقه لقطع الحقول الواسعة وارتقاء التلال لبلوغ للقرية المجاورة، تحت وطأة سيول الأمطار أو عبر الريح العاتية التي تزلزل كياناتهم الصغيرة، متذكرا بألم كذلك عدد الأطفال الذين لم يُرسلهم آباؤهم للمدرسة، سواء لبعد المسافة أو لخوفهم عليهم، لكن المحصلة هي أن عدد الأطفال اللذين تلقوا قدرًا مناسبًا من التعليم في القرية لم يتخط العشرة أطفال.

قبل التحاقه بمدرسة المعلمين العليا في القاهرة، حيث استقر فيما بعد، قبل قراره بالتقدم لطلب وزارة المعارف، والقدوم إلى هنا لتدريس أطفال جزيرة زهرة الجبل، التابعة جغرافيا لمحافظة الإسكندرية، رغم قربها من محافظة البحيرة، إذ حَلِمَ بتغيير مصير أطفال كان مثلهم ذات يوم.

تمايل القارب على سطح الماء، فانتزعه من بحور ذكرياته التي غرق بها، أفاق وتلفت حوله، فوجد الجزيرة قد اقتربت منهما بشدة، قال لعم سليم:

"يبدو أننا اقتربنا."

تنهد عم سليم، الذي بدا غارقًا في دوامة من الأفكار بدوره، قبل أن تنتزعه جملة مروان منها، ثم قال:

"لولا العيبة، لجلست وسط هؤلاء الأطفال لأتعلم."

سأله مروان مبتسما : "وما الذي يمنعك؟."

نظر له الرجل بدهشة قبل أن يُجيبه: "يقولون الرجل كبر وخرف، لا يا أستاذ طبعًا، لن أجلس وسط أطفال من عمر أحفادي، لأدرس ألف أرنب، باء بطة". قهقه مروان قبل أن يقول: "يبدو لي أن مستواك متقدم للغاية، وأنك لست بحاجة لأي دروس ابتسم الرجل وهو يصف قاربه بجوار الشاطئ، وقف مروان مد له المراكبي العجوز يده، فاستند إليها، وهو يعتلي جانب القارب، قبل أن يقفز منه نحو الشاطئ.

استدار ونظر للمراكبي العجوز، وقال: "اليوم الخميس، سنتقابل فجر السبت في نفس المكان لتعيدني للمدينة".

أجابه المراكبي مبتسمًا: "والله لو أن الأمر بيدي ما تركتك تعود."

ابتسم مروان، ورغم أنها مزحة، إلا أنه قلبه انقبض لها، فكم من كلمات قيلت كمزاح، لكنها آلمت متلقيها كحجر قاس، لكنه يعرف الرجل، ويعرف أنه لا يُضمر له أي شر، وأنه يمزح فقط.

أومأ برأسه ليُحيي الرجل قبل أن يستدير ويرحل نحو المنزل الذي خصصه له أهل القرية، أو الغرفة بمعنى أصح، بخطوات سريعة، يجب أن يحظى بقسط من النوم، فأمامه يوم طويل بالغد.

(2)

وصل مروان إلى منزله المنعزل على حافة الجزيرة لكنه لم يكن إلا مسكنا صغيرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لا يضم بين جنباته سوى غرفة واحدة، ودورة مياه ضيقة.

أمام باب المنزل، وجد صينية صغيرة مغطاة بقطعة من القماش، ابتسم لما رآها، إنه العشاء الذي تركه له أهل الولد حسان شعر بالامتنان لهم حقًّا، لأنه كان يتضور جوعًا بالفعل، فقد أنهى عمله في القاهرة، وما إن خرج من المدرسة، حتى ركب القطار المتجه إلى محافظة الإسكندرية، ومنها استقل سيارة وصولًا إلى محافظة البحيرة، وهناك امتطى حمارًا حتى وصل للقرية التي ينتظره فيها عم سليم لينقله بمركبه إلى هذه الجزيرة، ولقد كانت رحلة طويلة وشاقة حتى وصل إلى هذه المنطقة النائية.

فتح باب غرفته حاملا الصينية إلى داخل الغرفة المتواضعة، وضعها على (الطبلية) العرجاء – مستعينًا بحجر لتثبيتها بدلا من قدمها الناقصة - ووضع كتبه وحقيبته الصغيرة على الفراش، ثم أشعل عدة شموع تناثرت في أرجاء الغرفة، فانتشر ضوؤها الخافت مُضفيًا على الغرفة جوا من السكينة.

جَلَسَ أرضًا، قبل أن يُسمي الله، ويبدأ في تناول عشاءه على ضوء الشموع الخافت فول وطعمية وباذنجان، وسلطة خضراء. ورغم أنها وجبة بسيطة إلا أنها أشعرته بالشبع العميق. لم ينقصه سوى

كوب شاي، لكن الإرهاق الشديد غلبه، فقرر التخلي عن فكرة إعداده.

انتهى من تناول طعامه، وحمد الله على نعمته ونهض ليجلس على طرف فراشه. كانت خطته أن يبدل ثيابه، ويخلد إلى النوم ليستيقظ مبكرًا، فسيجد الأطفال في انتظاره في السابعة صباحًا، لكن الفول والباذنجان تعارضا مع خطته، فشعر بثقل غريب يتسلل إلى جفنيه، وضع حقيبته أرضًا، وكتبه جانبا واستلقى للحظة، قبل أن يتحامل على نفسه، وينهض ليطفئ الشموع كيلا تتسبب في كارثة ليلا.

عاد ليرقد على فراشه، ونظر للسقف، تأمل الظلام الذي احتضن كل الموجودات تنفس بعمق، وقرّر الاستسلام للنوم، غافلا عن حقيقة أن تلك الليلة.. لن تكون كسابقتها.

***

بمجرد أن أغلق عينيه، بدأ النعاس يتسلل إلى جسده، لكنه لم يأتِ وحيدًا، بل جلب بعض الأصوات برفقته.

سمع مروان بعض الأصوات الخافتة تتسرب إلى أذنيه، ومنها إلى وعيه الذي يكاد يستسلم أمام النعاس، أصوات تشبه الخدوش الناعمة على الجدران وكأن أظافرا حادةً تنقش أسرارها عليها، راودته فكرة تجاهل هذه الأصوات، مقنعا نفسه بأنها ليست سوى الحشرات المنتشرة في المنطقة، تنتقل من جدار إلى آخر، أو هو السوس ينخر الخشب القديم، أو ما إلى ذلك.

شعر بالبرودة تتسلل إلى جسده، فمد يده دون أن يفتح عينيه، وتحسس فراشه الخشن حتى وجد الغطاء الثقيل الذي يقيه قر الليل، جذبه ووضعه على جسده كيفما اتفق لكنه سرعان ما سمع همسات خافتة غير مفهومة، كأنها أنفاس متثاقلة، حاول تجاهلها، قبل أن يشعر بدفء رطب يشق طريقه إلى أذنيه، وكأن أحدهم يهمس بجواره.

لم ينتبه للأمر في البداية، فقد غلبته سكرات النوم وغيبت مركز الإدراك في دماغه، فاختلطت أحلامه بالواقع، حتى أضحى غير قادر على التمييز بينهما.

لكن الهمس تحوّل إلى كلمات واضحة: "دخلت...

لكنك لن تخرج."

انتبه للجملة، فليس من عادة أضغاث الأحلام أن تتسبب في سماع جمل كاملة منطقة بهذه الطريقة

اعتدل مذعورًا على فراشه، وهو يُسمي الله ويستغفره بصوت متهدج، وعيناه تتفحصان أركان الغرفة المظلمة بحثًا عن مصدر الصوت، لكنه لم يجد سوى شيء واحد في انتظاره.. الظلام الدامس الذي يغمر أرجاء الغرفة وكأنه يخفي في جعبته أسرارًا لا تُحكى.

استغفر الله، ومسح وجهه بيديه في قلق، ربما هي أوهام ناجمة عن الإرهاق، أو أن ثقل الطعام وراء هذه الهواجس عاد للنوم على فراشه، تنهد محاولا طرد الخوف الذي تسلل إلى أعماقه، لم يمض وقت طويل حتى غلبه النوم مجددًا، هذه المرة شعر بحركة خافتة في غرفته، ابتسم دون أن يفتح عينيه وهمس لنفسه: الحشرات اللعينة، أو ربما هو فأر يبحث عما يشد جوعه."

تجاهل الصوت تماما، حتى بدأ يغوص في أعماق النعاس، لكنه سرعان ما شعر بثقل يضغط على

طرف فراشه، وكان هناك من جلس عليه لتؤه، انتفض فرعًا، ونظر إلى فراشه، لا شيء، تجوّل بناظريه في أرجاء الغرفة، لا شيء أيضًا.

بدأ يلوم نفسه على تناول الفول والطعمية قبل النوم مباشرة، لكنه كان مُرهقًا منهكا، بعد سفره الطويل وأخذ يرزخ تحت وطأة نومه المتقطع، الذي لا يدوم إلا لدقائق معدودات قبل أن يحدث ما ينتزعه من نومه، ويعيده إلى أرض الواقع.

وكلما غفا .. استيقظ فزعا على وقع حركة مفاجئة.
وكلما نام.. نهض مذعورًا على صدى صوت غامض.
وكلما غط .. قام خائِفًا تحت وطأة شعور غريب.

حاول تجاهل كل شيء، والعودة إلى النوم، لكنه شعر بشيء يضغط على صدره، وكأن ثقلًا يجثم على روحه حاول الصراخ.. لكن لم يخرج من بين شفتيه

سوى همش خافت ظن في البداية أنه الجاثوم، لكن ذلك الشك لم يصمد طويلًا، بعد أن وجد جسده يتحرك بشكل طبيعي.

ظن أنه لمح ظلا يتحرك في الزاوية، يندمج بالظلام حتى يختفي عن ناظريه، لكنه رآه.. أو.. أو هكذا يعتقد.

الوقت يمضي، ومع كل دقيقة تمر؛ يزيد الرعب في قلبه.

حاول إجبار نفسه على التفكير بشكل عقلاني وإقناع نفسه بأن كل ما يحدث لا يزيد عن كونه إرهاقا يتملك جسده، أو تأثير للطعام الذي تناوله.

عرف أنه ما ينفك يُكرّر على نفسه هذه الحجج والتبريرات دون جدوى، لكنه لا يملك خيارًا آخرا سوى أن يقتنع بها رغم ضعف حجتها، أو أن يُصاب بلوثة جنون غرق في بحر أفكاره، يترنح بين اليقظة والحلم حتى بدأ يغط في النوم مرة أخرى، وما إن استسلم حتى شعر بنفس بارد على عُنقه، فتح عينيه في خوف، دون أن يتحرك من مكانه، شعر بالنفس مرة أخرى، زلزل الرعب قلبه انتفض جسده وبدأ يرتعد.

استدار بسرعة، لكنه لم ير سوى الظلام الذي بدأ يجثم على روحه حتى خنقه.

ارتفع الرعب في قلبه كأمواج عاتية، واضطر للاستلقاء مفتوح العينين لفترة، محاولا تهدئة وطأة أنفاسه المتلاحقة، قبل أن يُنهكه النعاس، ويستسلم للنوم العميق.

هذه المرة.. عندما فتح عينيه، وجد نفسه محاطًا بالهدوء، بينما تنثر الشمس أشعتها الذهبية في أرجاء الغرفة، وكأن ليلته المضطربة ما كانت إلا حلمًا.

نهض من فراشه، متجاهلًا الألم الذي استشرى في أوصاله بعد نومه المتقطع، نظر للصينية التي احتوت على عشاءه بلوم، لكنها نظرت له ببراءة وكأنها لم تكن سببًا فيما حدث.

نهض متجها نحو الحمام الصغير، ورغم برودة الجو سمح للماء البارد أن يغسل آثار الإرهاق وعلامات الخوف عن جسده، حتى أفاق تمامًا، وتناسى ما حدث ليلة البارحة، خَرَج ليغسل الأطباق والصينية جيدا فرغم أن أحدًا لم يطلب منه ذلك، إلا أنه لن يترك أحدهم يغسل مكان أكله.

بدل ملابسه بأخرى نظيفة، وضع الصينية في مكانها بالخارج، ووقف أمام باب غرفته، تنفس هواء

الصباح البارد، قبل أن ينظر لساعته.. دقائق وتصبح السابعة صباحًا، لقد أن أوان الانطلاق نحو مكان الدروس فالأطفال في انتظاره.

(3)

رغم أنها جزيرة نائية، إلا أنها أشبه بقرية صغيرة حيث تنقل الأشجار أساطير الزمان، وتروي الحقول حكايا الأرض العتيقة. لطالما استمتع مروان بالطبيعة الخلابة لهذا المكان، خصوصًا شجرة البلوط العملاقة التي تتربع في قلب الحوش الواسع الذي خصصوه للدراسة.

تلقي الشجرة بظلها الوارف، الذي يحجب نور الشمس عن نصف الحوش تقريبًا، مانحة لمروان ملاذًا ظليلا، يجلس أرضًا، وأمامه الأولاد الأربعة، حسان وعمر، وفريد، وهنادي الصغيرة، والتي تعد الفتاة الوحيدة فيما بينهم.

بالطبع هناك المزيد من الأطفال في الجزيرة، لكن قطار التعليم لم يلتقط سوى هؤلاء الأربعة، وهكذا مثلوا قوام فصله الدراسي.

فتح كتاب اللغة العربيّة، مستهلا درسا نحويًا عن كان وأخواتها، مؤكّدًا على أهميته وضرورة التركيز لفهمه جيدًا.

وهكذا راح مروان يشرح: "اسم كان هو كل مبتدأ تدخل عليه كان أو إحدى أخواتها، ودائما ما يكون اسم كان مرفوعًا". ثم حرّك ناظريه بين الأطفال قائلًا: "كمثال: كان زيد قائمًا. صمت للحظة قبل أن يضيف: "والآن.. من منكم يستطيع أن يعطيني مثالاً آخرا؟."

رفع عمر يده، وبصوته الطفولي قال: "كانت الشجرة مثمرة."

هز رأسه بالاستحسان، ثم أشار لحسان قائلًا: "دورك."

فكر حسان للحظة قبل أن يُجيبه: "أمست السماء ممطرة."

قال: "مظبوط".

ثم أشار لهنادي وقال: "دورك."

قالت في مرح طفولي: "بات النجم لامعًا."

قال: "جيد جدا، والآن دورك يا فريد".

ابتسم فريد بمكر وقال: "أضحى لدينا قتيلًا."

ضحك بقية الأطفال ضحكات مكتومة، بينما اتسعت ابتسامة فريد بقليل من الغرور، شعر مروان بضرورة التصرف ببعض الصرامة كيلا يفلت زمام الأمور من يده، فقال بحزم: "خطأ، أعطني مثالاً آخرًا."

قال فريد دون أن تتسع ابتسامته: "أصبحت النداهة حقيقية."

تعالت الضحكات الطفولية، وشعر مروان بالضيق، لأن فريد لم يحترمه بشكل كاف، أو ربما لأن هناك شيء لا يفهمه شيء يُثير ضحك هؤلاء الملاعين الصغار.

قال بغضب لم يعتده أحد: "كفى."

قبض الخوف على أصوات الأطفال الأربعة، فأحال صخبهم إلى صمت رهيب نظر مروان إلى فريد الصبي المشاكس الذي يُعرف كذلك بذكائه الحاد وقال:

"انصرف، تفضل. ولي حديث آخر مع والدك."

قال فريد بخوف ممزوج بالدهشة: "لكن يا أستاذ...".

قاطعه مروان قائلًا: "دون لكن يا فريد، أنت تعرف أن الجزيرة خالية من المدارس، ولا يأتيكم مدرس غيري. وها أنت ذا.. تسخر مني وتحاول إفساد الدرس، دون أن تدرك أنني إن قررت عدم القدوم إلى هنا، بسبب تصرفاتك، سيعني هذا انتهاء مستقبلك الدراسي أنت وزملائك، أهذا ما تريد؟."

نظر الصغير أرضًا وتهدج صوته وهو يقول: "لا، أنا آسف."

هز مروان رأسه قائلًا: "حسنًا، لقد تقبلت أسفك، والآن.. عد للمنزل، ولي حديث مع والدك."

دمعت عينا الصغير قبل أن يقول بصوت خافت: "آخر مرة."

نظر له مروان للحظة قبل أن يتنهد ويشير له بالجلوس فأسرع الفتى بالجلوس وهو يكفكف دموعه شعر مروان بالندم للحظات، لأنه لم يكن قاسيا مع الأطفال من قبل، ولا يدري السبب الذي

دفعه للتصرف بهذه الطريقة، ربما النوم المتقطع الذي عانى منه ليلة أمس هو السبب.

قال للأطفال بنبرة مُحذِّرة: "والآن سنعود للدرس وكما قلت من قبل، إنه درس مهم، ويحتاج لقدر كبير من التركيز، لذلك .. دعوا الخرافات جانبًا، وركزوا."

قالت هنادي: "لكنها ليست خرافات يا أستاذ."

نظر لها بدهشة، كانت هنادي أصغرهم سنا، وتكتفي عادة بالاستماع، دون أن تشارك في أية أحاديث جانبية، أو خارج نطاق ما يدرسونه.

سألها: "ماذا تقصدين ؟."

أجابته بصوتها الطفولي: "يقولون إنهم وجدوا قتيلا في غيط محروس الضلالي بالأمس.

عرف مروان على الفور أنهم يقصدون محروس، ذلك الفلاح الذي يعكف على زراعة الذرة، والمعروف بين جموع أهل الجزيرة بلقب "محروس الضلالي"، لأنه دائمًا ما يحاول خداع أو سرقة كل من يتعامل معه وهكذا أصبح التعامل معه بمثابة مغامرة يحاول الكثيرون تجنبها.

وقبل أن يُجيبها مروان اندفع حسان بحماسة قائلًا:

"ويقولون أيضًا إن النداهة نادته، ثم قتلته."

قال عمر بهمس : "اللهم احفظنا."

تدخل مروان في الحديث قائلًا: "مبدئيًا؛ لا وجود لشيء يُدعى النداهة، هذه أسطورة خيالية، والأساطير لا تتجسد في واقعنا وترتكب جرائم القتل، ثانيًا؛ أين الشرطة من هذا الأمر؟."

قال حسان، وقد كان أحكمهم وأطلقهم لسانًا: "أنت تعلم يا أستاذ أن أقرب قرة قول (1) يبعد عنا حوالي ساعة، وسيأتون غدًا على متن مركب العم سليم، لكن حتى ذلك الحين.. نحن بمفردنا."

همس عُمر بصوت متقطع يغلب عليه الخوف: "لسنا بمفردنا، بل بيننا نداهة."

قال فريد وقد توقف عن البكاء: "نداهة قاتلة."

تنهد مروان بيأس قبل أن يُغلق كتاب اللغة العربية ويضعه جانبًا، ثم يعتدل في جلسته قائلًا بنبرة ملؤها الحزم: "يجب أن تعرفوا الفرق بين الحقيقة والخيال لم تعودوا صغارًا لترددوا تلك الأساطير الخيال هو كل شيء لا دليل مادي على وجوده، كل ما لا نراه أو تمسكه، ولا وجود له سوى في حكايات الجدات

والأساطير."

أشار بشكل مجازي نحو الحقول وأردف قائلا: "لقد حدثت جريمة قتل، هذا صحيح ويعني وجود قتيل وإن فكرنا بمنطقية.. فمن الضروري وجود قاتل، وهذه مهمة الشرطة يا صغار ستأتي غدًا، وتقوم بواجبها، ثم ستكتشف هوية القاتل."

ثم أومأ لهم برأسه مؤكدًا: "لكن المهم الآن.. أن تعرفوا جيدًا أنه لا يوجد أي شيء يدعى النداهة، وأنها..".

قاطعه حسان قائلًا بثقة: "لكن يا أستاذ هناك نداهة حقا، وهناك العديد من الأساطير مثل أسطورة حسن البحري، تلك الأساطير التي يؤمن أهل الجزيرة بأنها حقيقية."

زفر مروان بعمق قبل أن يقول: "ما النداهة إلا أسطورة شعبية تتحدث عن سيدة جميلة تظهر للناس في الأماكن الريفية، وتستخدم صوتها الجذاب لإغواء الأشخاص، لكن يجب أن تعرفوا كذلك أن هناك العديد من قصص الجنيات والساحرات اللائي

يتمتعن بنفس الصفات في جذب ضحاياهن والإيقاع بهم.

كما قلت من الناحية المنطقية، لا يوجد أي دليل ملموس على وجود مثل هذه الكيانات، ومع ذلك... دعوني أقدم لكم تفسيرًا منطقيًا، أو اثنين لهذه الخرافات.

ألم يخطر ببال أحدكم أن تلك الأسطورة تستخدم كوسيلة لتحذير الرجال من الانصياع لأي سيدة جميلة أو تتمتع بصوت جذاب، وأن مصدرها هو امرأة شعرت بالغيرة على رجلها، فتعمدت إثارة خوفه لتبعده عن السيدات الجميلات؟."

قهقه الأطفال في مرح، وقد أعجبهم التفسير، ابتسم مروان، وعرف أن طريقته تؤتي ثمارها، وهكذا تابع حديثه قائلًا: "وكذلك يُمكن تفسير الأسطورة بأنها تحذير من الأماكن المنعزلة أو الخطيرة، أو من الخروج ليلا، أو للتحذير من الأخطار بشكل عام، صحيح؟". وجدت كلماته طريقها لقلوب الصغار، الذين كانوا كالصلصال في يد نحات خبير، يشكل

نفوسهم وأفكارهم بكلماته، هزوا رؤوسهم، سألهم: "والآن... أجيبوني؛ هل هناك نداهة؟."

هزوا رؤوسهم نفيًا، قبل أن يقول فريد: "بل هي سيدة تغار على زوجها."

قهقه الأطفال في سعادة مرة أخرى، ابتسم مروان قبل أن يُمسك كتاب اللغة العربية، ويقول بحزم والآن نعود لكان وأخواتها من يُمكنه أن يخبرني بأخوات كان؟."

رفع الأطفال أيديهم، وما بين شرح مروان المبسط وذكاء الأطفال وتركيزهم انتقل من اللغة العربية للرياضيات ومنها للعلوم، قبل أن يكتفي بهذا القدر على وعد بتقديم المزيد من الدروس في الغد.

شكر الأطفال، وسمح لهم بالانصراف، فتقافزوا سعادة قبل أن يبتعدوا عن ناظريه، عدا فريد الذي اقترب منه، وقال بحرج: "لا ترحل يا أستاذ، نحن نحبك."

ربت على رأس الفتى وابتسم قائلًا: "وأنا أحبكم يا فريد، وأحبك أنت تحديدًا، لا تخف يا صغيري، لن أرحل."

وهكذا تبع فريد زملائه بخطوات سريعة، وتركوه وحيدًا يمطط جسده في إرهاق وتكامل.

(4)

ساعد عم سليم زبونه للهبوط من المركب الصغير تمايل المركب تحت وطأة خطوات الرجل الثقيلة وهو يُغادره، لكن هذا لم يكن غريبا على عم سليم، العجوز الذي خاض بحار الحياة طويلًا في مهنته، بعد أن ورثها من والده، ومن قبله جده ونوى أن يورثها لابنه من بعده.

ابتسم بحنو عندما تذكر أنه لم ينجب أي ذكور، فقد من الله عليه بابنتين زهرتان في بستان حياته، هند وكوثر، واللتان ملاتا حياته بالبهجة والفرح، حتى إنه يخشى أن يفشي سر سعادته حتى لا يحسد نفسه.

وبما أنه ذُريَّته قد خَلَت من أي ذكور، فقد قرر أن يورث مهنته لأقرب الذكور إليه، لإبراهيم ابن شقيقه لكنه سيشترط عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه في البداية، ليظل كل من المهنة والمركب يُدران الربح على أسرته.

العقبة الوحيدة أمام هذا القرار هي أن إبراهيم هو ابن شقيقه الوحيد والصغير، الذي جاء كـ (غلطة) بعد عشرين عاما عاشها عم سليم كابن وحيد، وبالتالي فلا يزال إبراهيم صغيرًا لم يبلغ الحلم بعد، لكن عم سليم يدعو الله يوميًا في صلاته أن يمد الله في عمره حتى يطمئن على بناته أولًا.

شكر الزبون عم سليم، ونقده ماله، قبل أن يبتعد ذاهبًا إلى وجهته، نظر عم سليم للقمر المتلألئ في كبد السماء، وفكر في المبيت هناء والعودة في الصباح الباكر إلى الجزيرة، لأن الإبحار في قلب البحر، ليلًا، وحيدًا، ليس بالفكرة الجيدة أبدًا.

لكنه تذكر مرض زوجته المسكينة، هناء، التي لن تغفر له لو تركها وحيدة في مرضها، وهكذا توكل على الله وعاد ليتحرك بقاربه مرة أخرى.

ورغم الخوف الذي سكن قلبه، إلا أنه أخبر نفسه إنها مجرد رحلة روتينية أخرى من مئات، وربما آلاف الرحلات التي قطعها وحيدًا بقاربه، تجاهل عينه اليسرى، التي ما انفكت (ترف) أو ترتعش في مؤشر شعبي قديم يعرفه جيدًا، وينذر بسوء وشيك.

في منتصف الطريق تقريبا، شعر بالملل يتسرب إلى قلبه، يجاور الخوف الكامن في أعماقه، بل حتى ويزاحمه في نفسه. تنهد بعمق، وقرر أن يسلي نفسه بطريقته الخاصة، وأي تسلية يرجوها مراكبي عجوز مثل عم سليم سوى ترديد مؤال قديم من تلك المواويل التي يُحبها؟

رفع عقيرته بالغناء، متغنيًا بموال قديم عن الشجاعة والجدعان غناه بإحساس عال ومشاعر جياشة دام غناؤه لدقائق قبل أن يختتم موال بسيمفونية لا بأس بها من الشعال، قبل أن ينشج بعنف وهو يُجاهد لالتقاط أنفاسه بشكل طبيعي.

لطالما أخبرته زوجته المصون أنه صوته شنيع وطلبت منه ألا يُغني مرة أخرى، لكن صوته يطرب أذنيه، صحيح أنه مصاب بصمم خفيف، لكن هذا لا يعني أن صوته شنيع لهذه الدرجة، الغريب.. أنه لاحظ فرار الأسماك من حوله أثناء غنائه، لكن لا يُمكن أن يكون هذا بسبب مدى سوء صوته، أليس كذلك؟

مد يده والتقط الزجاجة الصغيرة التي عادة ما يتركها بجواره، شرب منها رشفة، هدأ شعاله، أعاد الزجاجة إلى مكانها، ثم عاد للنظر أمامه، هذه المرة... رأى شيئًا غريبًا يطفو على سطح الماء أمامه، لم يُميزه بوضوح بسبب الظلام الدامس الذي يحتضن البحيرة لكنه سرعان ما أدرك أنه.. أنه غريق!

انتفض من مجلسه، وأسرع إلى مقدمة القارب، استند بذراعيه على جانبيه واشرأب بعنقه للأمام بحثا عن الغريق الذي رآه، وبالفعل رأى جسدًا مُعتِمًا يُصارع أمواج البحيرة، قبل أن تخونه مياه البحيرة، فيهبط تحتها لعدة ثوان، ويصعد ليعيد الكرة هذا غريق!

وجه مركبه نحو الغريق، واقترب منه الغريب.. أنه كلما اقترب، كلما زادت المسافة بينه وبين الغريق وهكذا وجد نفسه في منتصف البحيرة مرة أخرى بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من شاطئها.

لا ينفك الغريق يتصارع مع الأمواج محاولا النجاة قبل أن يفشل في إيجاد ما يتمسك به، ويهبط للأسفل مرة أخرى، عرف عم سليم من خبرته

البحرية، أنه لا وقت للتردد، وأنه سرعان ما سيهبط الغريق للأسفل... ولا يصعد مرة أخرى.

وهكذا توجب على عم سليم مطاردته مرة أخرى حرك قاربه نحو الغريق، وللمرة الثانية.. بدت المسافة بينهما كسراب، يتمدد كلما اقترب.

وسرعان ما وجد نفسه في منتصف البحيرة مرة أخرى، وكأنهما يدوران في دائرة مغلقة.

وقف عم سليم في قاربه، يُحاول أن يستوعب ما يحدث، ويُحاول كذلك سبر أغوار الظلام بعينيه، بحثًا عن الغريق الذي اختفى تماما، وكأنه لم يكن!

شعر بمرارة العجز تتسرب إلى قلبه، لأنه لم يستطع إنقاذه، ظنا منه أنه قد غرق بين أحضان الماء، جلس في قاربه، ودفن وجهه بين يديه، وأخذ يلوم نفسه على عجزه عن إنقاذه، شعر بقشعريرة باردة تغزو جسده، فلف الوشاح الصوفي حول وجهه، وتنفس بداخله، وهي الطريقة التي يستخدمها كلما زادت برودة الجو كيلا يهاجم المرض جسده النحيل.

اهتز القارب قليلا، ثم تزايد الاهتزاز، فمال على يساره حتى كاد ينقلب شعر عم سليم بالدهشة، لأن البحر

هادئ الليلة، ولا توجد أمواج عاتية لتتلاعب بقاربه بهذه الطريقة، لكنه تجاهل الأمر، مستمرًا في بحثه المحموم عن الغريق الذي اختفى في قلب البحيرة المظلمة لمرة أخيرة قبل أن ينطلق مبتعدًا بقاربه.

***

لكنه لم يشعر بتلك الجثة المنتفخة، التي بدأ لونها يتحول للون الأزرق وهي تتسلق قاربه من تحت الماء، بيدين منتفختين والطحالب التي تشابكت مع أصابعها، كانت جثة رجل نحيل، ويبدو أنه قد غرق منذ زمن طويل، لأن جسده ازرق وانتفخ حتى كادت ملامحه تذوب.

تسلق القارب واستقر في الجزء الخلفي منه، راقب عم سليم وهو يلف وشاحه حول أنفه، وكان هذا جيدًا كيلا تتسلل رائحة اللحم المتحلل إلى أنفه، وقف خلفه، تحرك بصمت، وبطريقة آلية كانت لتجمد الدماء في عروق من يراها.

تساقط الكثير من شعره، كاشفا عن فروة رأسه، التي تأكلت بفعل المياه، تحرك نحوه بطريقته الآلية، لم

ينتبه له، مُنشغلًا في البحث عن غريق، لم يكن موجودًا من الأساس.

فهذه هي طريقة "حسن البحري" في اصطياد ضحاياه.

***

شعر عم سليم بالقارب يهتز من خلفه، استدار بسرعة ليتحقق من سبب هذا الاضطراب، لكن ما وجده خلفه جعل قلبه ينقبض بقوة، فقد وجد جثة متحللة تقف خلفه، ورغم الظلام إلا أنه ميز ازرقاق جلدها وتجعده غمره الرعب، وآلمه قلبه بشدة، إذ يبدو أنه على شفا نوبة قلبية، وهو أمر طبيعي لأي شخص عاقل يحترم نفسه يجد نفسه في مواجهة مع غريق عاد للحياة.

مد يده نحو المجداف الأيمن في محاولة يائسة للدفاع عن نفسه، وحاول ضرب الجثة به، لكنها أمسكت يده بقوة، سقط المجداف من يده، ارتطم بطرف القارب، قبل أن يسقط في المياه.

مد يده الأخرى محاولًا صفع الغريق، أو حتى لكمه، لكن الغريق - رغم حركته الآلية - تحرك بخفة

متفاديًا لكمته قبل أن يقبض على عنق عم سليم بيده الحرة، بدأ يعتصر عنقه بشدة، حاول عم سليم التملص من قبضته، لكن الجثة كانت أقوى من.

ارتخى جسده، واتسعت عيناه بفعل الخوف، وتدلى ذراعاه بلا حراك على جانبيه، وهو يُكافح لالتقاط أنفاسه الأخيرة، مختنقًا بين يدي الغريق، قبل أن تخور قواه، ويستسلم للموت. توقف عن التنفس، قبل أن يلقيه الغريق جانبًا بعنف، سقط على جانب قاربه تدلى أحد ذراعيه في الماء، ومال وجهه حتى هبط أنفه وفمه تحت الماء.

ابتسم الغريق، قبل أن يغوص مجددًا في أعماق الماء، حيث ينتمي، مُعلنا موت ضحية جديدة من أهل الجزيرة على يد أسطورة مخيفة أخرى.

يبدو أن الأيام القادمة لن تحمل الخير لأهل الجزيرة.. أبدا.

(5)

تأخر مروان اليوم قليلا، فوصل إلى الساحة الصغيرة التي يستخدمها كفصل دراسي بعد وصول الأطفال بعدة دقائق، لكن عند دخوله انتابه شعور غريب بأن

هناك شيء مختلف في هذا اليوم، فقد احتشد الأطفال في الظل الوارف للشجرة الضخمة، وهربوا من الشمس رغم البرودة التي لفت الجو.

كما اقتربوا من بعضهم البعض، وتبادلوا الهمسات فيما بينهم، محبوكين بتوتر ملحوظ، فيما انهمكوا في حديث جانبي، حتى إنهم لم يلتفتوا لحضوره.

وقف بجوارهم قليلًا حتى انتبه عمر لقدومه فاعتدل في مجلسه وهو يقول محذرًا: "الأستاذ.. الأستاذ."

وبذلك، انتبهوا، فاعتدل بقية الأطفال، متظاهرين بأن شيئا لم يحدث، رحبوا به، وإن كان ترحيبهم فاترا بعض الشيء، ويفتقر للدفء الذي اعتاده منهم، قال لنفسه ربما هي برودة الجو فالبرد اليوم قادر على إخماد أي دفء، حتى دفء القلوب.

ضم ياقتي معطفه إلى عنقه، وأخذ نفسًا عميقًا، شم فيه رائحة الحقول الزكية، قبل أن يجلس في مكانه المعتاد، عدل الأطفال من أماكنهم أمامه، نظر لهم وقال بنبرة دافئة: "صباح الخير."

ردوا تحيته جميعًا، بأصوات هامسة متفرقة ومشتتة. لكنهم في ساعة مبكرة من الصباح، ومن

الطبيعي أن يتشتت الأطفال في مثل هذه الساعة خصوصًا لو لم يتناولوا طعام إفطارهم بعد.

بدأ الدرس قائلًا: "الدرس الأول اليوم سيكون في مادة الدراسات الاجتماعية، أخرجوا كتبكم وتابعوا معي."

بدوا غارقين في (السرحان) وعدم التركيز، وأدرك مروان أنهم ليسوا على سجيتهم اليوم، وأن هناك ما يشغلهم حقا، فترك كتابه جانبًا وقال: "مالكم اليوم؟."

تبادلوا نظرةً حائرة فيما بينهم، قبل أن يقول حسان: "لا شيء."

هز فريد رأسه متظاهرًا بالابتسام، وأضاف: "نحن بخير، حقًا."

رمق مروان الأطفال بقليل من استنكار، قبل أن يُشير لهنادي الصغيرة ويقول بصوت ملؤه الحنان: "أنت لا تجيدين الكذب يا هنادي أخبريني ما الأمر؟."

ترددت قليلا، لاحظ نظرات الترقب التي حدجها بها

زملائها، قبل أن يُشجعها قائلًا: "لا تخشي شيئا، أخبريني بما يحدث!".

قالت بصوت خافت، وكأنها ندمت على البوح قبل أن تنطق بكلمة: "لقد عاد."

انتابت مروان الحيرة لوهلة، قبل أن يسأل: "من الذي عاد؟ ومن أين عاد؟."

اغرورقت عيناها بالدموع، وتهدج صوتها وهي تجبه: "حسن البحري.. لقد عاد!".

شهق بقية الأطفال عندما نطقت باسمه، وكأن قلوبهم الصغيرة ارتجفت من مجرد ذكر اسمه يبدو أن حسن البحري قد عاد إذن!

***

لم يكن حسن مُجرد صياد عادي، بل كان ماهرا واسع الرزق، كما كان بشوشا بين الناس، طيب الخلق وحسن السيرة. أحبه أهل الجزيرة بأكملهم، ما عدا بعض الصيادين، الذي نظروا لمهارته على أنها تهديدًا لأرزاقهم، بل وتمنوا أن تأتي مصيبة تأخذه حتى يرتاحوا منه ومن قرفه.

الحقيقة أن حسن لم يكن يرتاد نفس الأماكن للصيد مع بقية الرجال، بل كان يُفضّل اختيار بقعة نائية بالقرب من جزيرة مجاورة، ويذهب إلى هناك بمفرده وكلما ذهب وحيدًا.. وجد الأسماك وفيرة والمياه صافية كقلوب الأطفال.

لكن كلما حاول صياد آخر اقتحام هذا المكان، تغيم السماء، وتعلو الأمواج، وتختفي الأسماك، فيضطر الصياد للعودة قبل أن ينقلب قاربه ويفقد حياته، أو مصدر رزقه.

ما لم يعرفه أهل القرية هو أن حسن أخفى في قلبه جشعًا خفيا، ويسعى خلف حلم طموح بالسلطة والثروة، وأنه كان قد ذهب لدجال في قرية مجاورة أخبره أن هناك كنز في تلك الجزيرة، وأنه لن يجده إلا بمساعدة نفر من الجن على شرط واحد.. أن يعقد حسن صفقة مع ذلك الجن.

وبالفعل عقد حسن صفقته بمجرد أن يجد كنزه سيتركه الجن لمدة عشر سنوات، ثم يُصبح طوع سلطة الجن، يفعل به ما يُريد، ويُشكله كيفما أراد.

الشيء الذي لم يُدركه حسن، أن الرزق الوفير في الأسماك هو الكنز، وهكذا استمر في الصيد لسنوات منخرطًا في ملهاة البحث عن كنز ذهبي قديم.

وهكذا استمر حسن في بحثه المحموم عن الكنز في تلك الجزيرة، بينما منع الجن بقية الصيادين من تذوق حلاوة رزقها من الصيد الوفير مخلفًا وراءه حكايات عن رزق محجوب، وأمواج عاتية.

بعد عشرة سنوات من اتفاقه الذي كاد ينساه مع الجن - فوجئ يوما بشيء يلمع بشكل غريب تحت أشعة الشمس، وجه قاربه نحو رمال الشاطئ، ووجد قلادة مرصعة بحجر زمردي مدفونة تحت الرمال، مد يده وعيناه تلمعان جشعًا ليقبض عليها، وما إن لمسها حتى شعر بطاقة غريبة تسري في عروقه.

ما لم يعرفه حسن هو أن الجن قد استدرجه بتلك القلادة، وبدأ يُسيطر على حسن، الذي حاول مقاومته دون جدوى، وهكذا اختفى حسن.. ولم يره أحد منذ تلك الليلة، فقد خرج للصيد واختفى، وجد بقية الصيادين قاربه خاليًا، لكنهم لم يجدوا له أثرًا في أي مكان.

إلا أنهم شاهدوا أضواء غريبة من تحت الماء، وسمعوا أصواتًا مُرعبة، قالوا إنها تشبه صوت رجل يعذب تحت الماء، تتردد من أعماق البحيرة المظلمة.

وفورا انتشرت الشائعات، فقيل إن مخلوقا مرعبًا نصفه إنسان ونصفه من الجن، قد اختطف حسن، وأنه حوله لمخلوق مرعب مثله قبل أن يرحل البحيرة أخرى، ويترك تلك البحيرة ومهمة خطف كل ما تسول له نفسه الاقتراب منها لحسن الذي تحول لجن بحري وبدأوا يشيروا له بلقب "حسن البحري!".

***

انتهى حسان من سرده للأسطورة على مسامع مروان الذي لاحظ تهدج صوت حسان و اختلاط الخوف بنبراته في بعض أجزاء القصة، استمع بصبر حتى انتهى حسان من حديثه، كاد يتحدث.. لكن عمر أخذ زمام الحديث من صديقه، وبدأ يتحدث.

"منذ ذلك اليوم، ونحن نعيش في رعب لا ينقضي وأصبحت البحيرة منطقة محظورة ليلًا، خصوصًا على الأطفال."

تابع فريد من حيث توقف زميله قائلا: "يقولون إن القلادة ما زالت معلقة حول عنق حسن، وأنها تلتمع تحت سطح الماء عندما يكتمل القمر، لتغوي كل من لوث الطمع والجشع قلوبهم، كما أنهم يقولون إن صرخات ضحاياه لا تزال تتردد بين الحين والآخر في الليالي التي يكتمل فيها القمر."

هنا قرّر التدخل قبل أن يُدلي أي شخص آخر بدلوه في هذا الحوار قائلا بحدة ممزوجة ببعض الغضب: "لقد أخبرتكم من قبل أن هذه الحكايات ما هي إلا محض خيال، وخيال واسع لا يُصدق، لا يمكن لأي مخلوق سوى الأسماك، أن يتنفس تحت الماء، ولو أن حسن البحري هذا سمكة.. سيكون حديثكم معقولا، لكنه لن يشكل أي مصدر للقلق."

حاول فريد الاعتراض قائلا: "لكن يا أستاذ."...

قاطعه مروان بصرامة: "بدون لكن..". تجول بعينيه على وجوه الأطفال الأربعة قائلا: "لقد أخبرتكم هذا

بالأمس، وها أنتم ذا.. مصممون على تجاهل الحقائق وعازمون على الغرق وسط الخرافات والأوهام، لا وجود لأي شيء يُدعى حسن البحري أو حتى إبراهيم الجوي، لا شيء.. هل فهمتم؟ لا شيء."

سأله حشان بحذر طفولي: "ولا حتى أبو منشة يا أستاذ؟."

قال بغضب: ولا حتى أبو مقشة هذا". ثم أضاف محذرًا: "سأعاقب من يتحدث عن هذه الأمور مرة أخرى، ركزوا في مستقبلكم، واهتموا بدروسكم، ودعوا عنكم هذا الهراء، سنبدأ الآن في شرح درس الدراسات الاجتماعية الجديد، وإذا سمعت أي صوت.. لا.. إذا سمعت أي نفس.. سينتهي الدرس فورًا، وسأرحل... مفهوم ؟."

لم يُحبه أحد، فكرر بغضب: "مفهوم؟". قال الأطفال الأربعة في صوت واحد: "مفهوم يا أستاذ."

(6)

لم يعد إلى غرفته بعد أن انتهى من الدرس، والذي لم يكمله على أي حال، فقد غرق الأولاد في بحر من

الشرود وقلة التركيز، قرّر أن يسير في شوارع الجزيرة قليلا، قبل أن يعود إلى ملاذه الهادئ، غرفته.

أثناء تجوله، غاص في أعماق أفكاره، حتى فقد إحساسه بالزمن، فلم ينتبه لغروب الشمس إلا حين احتضن الظلام أرجاء المكان، أفاق ليجد نفسه على شاطئ الجزيرة يتأمل الجزيرة المجاورة، والتي تبدو كنقطة صغيرة في حضن البحيرة الواسعة، ودون أن يُدرك وجد نفسه يُفكّر في أسطورة حسن البحري، تلك الأسطورة القديمة التي قصها الأطفال على مسامعه.

شعر بالبرودة تتسلّل إلى عظامه، وبرائحة البحر تملأ أنفه، فقرر العودة، ضم ياقتي معطفه إلى عنقه، وتوجه نحو السوق الصغير، لم يكن ينوي شراء أي شيء، لكنه دائما ما يجد نفسه يميل لمراقبة أهل الجزيرة، تلك العادة البسيطة التي تغني روحه.

لكن اليوم كان مختلفًا، فقد خيم القلق على نفوس أهل الجزيرة بسبب الحادثتين الغامضتين اللتان حدثنا، كما تناثرت الشائعات هنا وهناك عن النداهة التي يسمعونها تنادي الرجال في الحقول ليلًا، أو عن

حسن البحري الذي يبحث عمن تسول له نفسه الاقتراب من البحيرة بعد غروب الشمس.

من السهل مناقشة بعض الأطفال، ومحاولة تغيير قناعاتهم. لكنه لن يُخاطر بمناقشة رجال الجزيرة ونسائها في مثل هذه الأمور، لأنهم يحترمونه، ولن يجازف بفقدان هذا الاحترام الذي سرعان ما سيتبخر عند أول اختلاف في وجهات النظر.

وهكذا ابتلع لسانه، وقرّر التزام الصمت، رغم غضبه الشديد الذي تأجج في صدره كلهيب نار لا تنطفئ.

عرف أن أحد أكبر الفروق بين أهل المدن وأهل الجزيرة، هو إيمان أهل الجزيرة بالخرافات التي لا أساس لها من الصحة، على عكس النسبة الكبرى من أهل المدينة، اللذين يؤمنون بالمنطق، ويميلون للتفكير العلمي على أسس صحيحة، دون أن يعرفوا حتى أنهم يفعلون ذلك.

من الصعب أن تجد أحد سكان القاهرة يتحدث عن وجود نداهة في المرج، أو أمنا الغولة في الحلمية القديمة، فلن تطيق أيهما زحام وصخب المدينة وستفر هاربة إلى وجدان أهل الريف والجزر، حيث

تتغذى على إيمانهم بوجودها لتقوى وتستقوي.

للمرة الثانية يفيق من طوفان أفكاره، ليجد أن جسده قد تحرّك بقوة الدفع الذاتي، لينفذ أوامر عقله الباطن، هذه المرة وجد نفسه أمام غرفته، ابتسم... ومد يده في جيبه، أخرج مفتاحه وفتح بابها، ودخل.

خلع عنه ملابسه، ودخل إلى دورة المياه ليستجم وقف تحت الماء البارد، الذي يُفضّله رغم برودة الجو، تجاهل القشعريرة الباردة التي تسللت إلى أرجاء جسده، ودون أن يدري تسللت النداهة إلى دماغه.

وراح يفكر في الأمر، نداهة في حقل ذرة قديم ظهرت لتحصد روحًا واحدة قبل أن تذوي في ظلال الغموض دون أن تترك أثرًا.

غسل جسده بالصابون جيدًا، ومرر يده ليتأكد من وصوله لكامل جسده، وهو يتأمل في الأحداث.

حسن البحري، الذي ظهر فجأة وبات حديث أهل الجزيرة، يبدو أنه قد ارتكب جريمة بدوره، لكنه لم يعرف تفاصيلها بعد.

إذن فقد سلمت النداهة الراية لحسن البحري، وكانت المحصلة جريمتا قتل المتهم الرئيسي فيهما أسطورتين مرعبتين!

سأل نفسه كيف يمكن للعقل أن يقبل هذا؟

حسنًا، هذا غير منطقي قال لنفسه: لابد من وجود تفسير منطقي.

أغلق الماء، ثم جفف جسده بالمنشفة، وارتدى ملابسه الجديدة. رتب حقيبته الصغيرة بعناية، وجمع كتبه واستعد للرحيل، لم ينس أن يضع منديله القماشي على أنفه كيلا يُصيبه هواء الشارع البارد بالزكام، لأن مناعته ضعيفة على أي حال، وهو شيء ورثه من...

سار بخطوات سريعة، وقد أصابته الفكرة الأخيرة بالكآبة، حاول تجاهلها، لكنها خلفت مرارة في حلقه سار حتى وصل إلى المكان الذي يفترض بعم سليم المراكبي أن ينتظره فيه، لكنه لم يجد سوى الصمت والفراغ.

تلفت حوله، لم يجد شيئًا، فقد وضع الظلام أوزاره وعاد أهالي القرية لمنازلهم خوفًا من أي هجوم

محتمل لأي أسطورة مخيفة قد تقرر ترك الخيال، والقدوم إلى

واقعنا لقتل ضحية جديدة.

لكنه كان يعرف أن هناك قهوة صغيرة أو (غرزة) كما يطلق عليها أهل الجزيرة يستخدمها بعض رجال الجزيرة علنا لتناول الشاي والقهوة من أيدي عم على الرجل العجوز الذي كان يعمل في صيانة (البوابير) قبل أن يقرر أن (الغرزة) أفضل، كما يستخدمونها سرا الشرب بعض سجائر الحشيش، أو الجوزة العمرانة(كما يُطلقون عليها في الخفاء.

سار نحو (الغرزة) ولاحظ الدخان الكثيف الذي يتصاعد من (العشة) الصغيرة، قبل أن يراوده سؤال لم يعرف إجابته: لماذا يُطلقون على دخان المخدرات

اسم الدخان الأزرق ؟

تجاهل الأمر وهو ينادي: "يا عم علي! عم علي!".

فتح باب (العشة) الخشبية الصغيرة، فخرج المزيد من الدخان، ومن بين غيومه خرج عم علي، رجل أسمر عريض المنكبين، يُعاني من عرج خفيف، تبسم

لما رأى مروان وقال مرحبا : "أهلًا يا أستاذ، بؤدي لو قلت لك تفضّل، لكنني أعلم أنك لا تشرب هذا (المدعوق)".

شكره قبل أن يسأله: "أين عم سليم؟."

تبدلت ملامح عم علي، وغلف الحزن وجهه، وهو يقول : "ألم تعلم بما حدث؟."

سيطر الفضول على وجه مروان وهو يقول: "لا، لم أعلم بأي شيء، ما الأمر؟."

تنهد عم علي قبل أن يُجيبه بحزن: "مات، لقد مات عم سليم."

شهق مروان، وقال بغير تصديق : "م.. مات؟ كيف؟". قال عم علي: "يقولون إن حسن البحري هو من قتله". ثم أضاف بصوت خافت: "اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم."

شعر مروان بغضبه يتقد بنيران المفاجأة، إذن فقد كان محقا عندما اعتقد أن حسن البحري هذا قد ارتكب جريمة قتل، لكنه لن يناقش رجلًا (مسطولا) في حقيقة الأساطير الخرافية، خصوصًا أن عم علي قادر على قتله بلكمة واحدة!

قال محاولاً إخفاء المشاعر التي تعتمل بداخله: "الله يرحمه، ومن سيخلفه؟."

قال عم علي: "حتى الآن، لا أحد يقولون إنهم وجدوه في عرض البحر، وأن قاتله أتلف قاربه، وقارب الجزيرة المجاورة أيضًا، وسيستغرق تصليح المركبين أسبوعًا على الأقل، وهكذا لن يخرج أي أحد أو يدخل أي أحد طوال هذا الأسبوع."

شهق مروان، ثم قال بتوتر : "إذن فأنا حبيس هذه الجزيرة طوال أسبوع ؟."

أشار عم علي للماء الذي يمتد من أمامهما وقال: "خذها عوم لو تقدر، لا خيار سوى الانتظار". ثم قهقه بمفرده على المزحة الثقيلة التي قالها، لاحظ أن مروان لا يضحك، فابتلع مزحه وقال: "آسفين يا أستاذ."

كاد يرحل قبل أن يخطر بباله سؤال آخر، فتوقف وسأل عم علي: "ماذا عن الشرطة؟."

قال عم علي بنفاد صبر: "سيأتون بمجرد أن يُصلح القارب، لا يمكنهم عبور البحيرة بدونه."

نادى صوت من الداخل بغضب: "وبعدين في (قلبة) الدماغ هذه؟."

أجابه عم علي ساخرًا: "قادم، قادم قبل أن (يطير) الحجرين من دماغي". ثم نظر إلى مروان قائلًا: "بعد إذن (الأستذة)". وعاد لـ (غرزته).

ظل مروان واقفًا للحظات، يُفكر فيما سمعه، قبل أن يقرر العودة إلى غرفته يجب أن يحضر خسائره ويعرف كيف سيدير أموره في قادم الأيام، خصوصًا في مثل هذه الظروف.

وهكذا عاد إلى غرفته، دون أن يعرف أن الأيام القادمة لن تمر عليه بهدوء وسلام أبدًا!!

(7)

انتابه حزن شديد على وفاة عم سليم المراكبي العجوز، ورفيق رحلاته في البحيرة، آلمه قلبه، وجثم ثقل الحزن على صدره، تمتم هامسًا: "رحمك الله يا عم سليم، فقد كنت رجلًا طيبًا."

اغرورقت عيناه بالدموع، لكنه مسحها وحاول جاهدًا التماسك، والحفاظ على هدوئه، وهو يسير في الشوارع شبه الفارغة عائدًا إلى غرفته، لا يريد أن يراه

أحد سكان الجزيرة وهو يبكي لن يتفهموا خزنه على صديقه الراحل، بل سيجعلونه مصبًا لسخريتهم هو عاد إلى غرفته، وأغلق الباب من خلفه، وجلس على فراشه، بعد أن وضع حقيبته أرضًا، وكتبه جانبًا، وطفق يفكر.

إنه عالق هنا لمدة أسبوع كامل، في انتظار اصلاح المركب، والعثور على مراكبي جديد، ثم ترقب وصول الشرطة إلى هنا للتحقيق في جريمتي القتل المروعتين اللتان وقعتا، وربما يطلبون منه البقاء حتى انتهاء التحقيق بشكل كامل.

ومن يدري؟ قد يجد نفسه متهما بارتكاب تلك الجرائم؟

وحتى لو تركوه يرحل ، كيف سينجو هنا وهو لا يملك قوت يومه، لم يكن في جيبه سوى بضعة قروش قليلة، وهي لن تكفيه إلا ليومين على الأكثر، وإن أنفقها .. فلن يستطيع العودة إلى القاهرة.

حيث إنه دائما ما يعتمد على صواني الطعام التي يوفرها له أهل الجزيرة، ولا يشتري شيئا من الجزيرة

على أي حال، كما أنه موظف.. والله وحده أعلم بحال الموظفين هذه الأيام.

مد يده في جيبه، وتحسس القروش القليلة التي استكانت داخل جيبه، وقرّر أنه سيحاول ألا يصرفها حتى يُغادر هذه الجزيرة، بالطبع لن يطلب من أحد أن يقرضه المال؛ فهو يحظى باحترام كبير بين أهل الجزيرة الذين يعتبر نسبة تسعون بالمئة منهم تقريبًا من الأميين، وينظرون له بتقدير وإجلال.

وهكذا فكر في الاستفادة من الحقول المتناثرة في أرجاء الجزيرة لتوفير طعامه، تفاحة من هنا، وخيارة من هناك، وسيستطيع لملمة شتات نفسه حتى يأتي وقت الرحيل.

كما قرر بعد قليل من التفكير - في استخدام الصابونة الصغيرة الموجودة في الحمام في غسل ملابسه سيبشر قطعة منها، كما علمته.. كما تعلم من قبل، ويستخدمها لغسيل ملابسه في الحوض الصغير الضيق الموجود داخل الحمام.

بالإضافة لقضاء الوقت في مراجعة الدروس الماضية مع الأطفال كيلا يشعر بالملل وللحفاظ على تقدمهم

الدراسي، وهكذا ينشغلون بالحديث عن الأساطير والخرافات.

لكن كيف سيرسل لمديره في العمل ليعرف أنه عالق هنا، خوفا من خصم الأيام التي سيغيبها عن العمل، أو حتى فصله بشكل نهائي، عليه أن يفكر في طريقة ما، لأن الجزيرة لا تحتوي على مكتب بريد ليرسل منه برقية أو تليغرافًا.

قال لنفسه وهو ينهض حسنًا، يجب أن أجد حلًا لهذه المشكلة.

استلقى على فراشه وطفق يُفكر في تلك الأيام القادمة، كيف ستمر عليه، وكيف سيقضيها وحيدًا ومفلسًا، ومعزولًا عن الآخرين.

كل شيء يسير نحو الأسوأ.. كل شيء!

لم يحدث له أي شيء جيد منذ أن وطأت قدماه أرض هذه الجزيرة هذه المرة، الأطفال لا يطيعونه وصديقه الوحيد هنا لقي حتفه والآن.. لن يستطيع مغادرة المكان قبل أسبوع، ناهيك عن جرائم القتل التي تحدث في أرجاء الجزيرة منذ أيام. تبادرت إلى

ذهنه فكرة جامحة فوجد نفسه يتساءل: يا ترى هل ستتوقف فورة القتل الآن؟ أم أنها ستزداد؟

انتزعه صوت طرقات خافتة على باب غرفته فكر في تجاهلها والتظاهر بالنوم، لأنه مرهق للغاية، كما أنه لم يكن في حالة مزاجية تسمح له برؤية أحد. كما راودته فكرة أنها ربما تكون أسطورة متوحشة قد غادرت الخيال، وجاءت لتحصُد روحه، لكنه سرعان ما صرف تلك الفكرة عن رأسه.

ورأى أنه من الأفضل أن ينهض ليفتح الباب، عسى أن يكونوا قد جاءوا ليخبروه بأنهم قد وجدوا طريقة لإعادته للمدينة، قال: "لحظة واحدة."

ثم نهض ليفتح الباب، وعندما رأى طارقه، تجمد في مكانه مندهشا مما يرى فأمام عينيه.. رأى آخر شيء توقع أن يراه هنا في غرفته!

(8)

نصب عينيه.. وقفت أجمل فتاة رأتها عيناه، حتى إنه سيجد نفسه عاجزًا أمام جمالها؛ لو طلب منه أحدهم أن يصفها له.

فقد قدرته على الكلام أمام حسنها، ونسى كيف يتنفس أمام عينيها، ولم يستطع حتى أن يغض بصره عنها، وبات مشدودًا إليها بقوة تفوق قدرته على التحكم في نفسه.

وقف أمامها، متجمدا كالتمثال، لا يتحرك، ولا يتنفس خيم صمت طويل بينهما، قطعته بحياء: "كيف حالك يا أستاذ؟."

بحث في ثنايا عقله عن إجابة؛ لكنه لم يجد سوى بضع حروف مبعثرة، لا تصلح لتكوين جملة مفيدة

فقال بتلعثم واضح: "الحند للع، أقصد.. الحمد لله."

ابتسمت بخجل، ثم أشارت نحو الصينية التي تحملها، وقالت: "العشاء."

انتبه للمرة الأولى أنها تحمل شيئا، بل وأن لديها يدين من الأساس، فابتعد عن الباب معتذرا، وقال:

"آسف، تفضلي بالدخول."

تراجعت خطوة للخلف، وقالت بتحفظ: "لا يصح يا أستاذ، فأنت شاب أعزب."

انتبه لكلماتها، وأفاق من دهشته، وقال معتذرا "آسف، لم أقصد". ثم أخذ منها الصينية بحرص وقال: " عنك .. عنك أنت."

تركت له الصينية التي تفاجأ بوزنها، فكادت تسقط من بين يديه، وضعها فوق (الطبلية) العرجاء، وعاد ليشكرها: "شكرًا يا."..

ابتسمت وقدمت له نفسها قائلة: "نسيمة، اسمي نسيمة، وأنا شقيقة حسان."

تاه في حسنها مرة أخرى، قبل أن يقول: "حسان؟ حسان من؟."

ضحكت بخجل وهي تقول: "حسان، تلميذك يا أستاذ!".

أدرك حينها من تكون، فقال مُعتذرا: "أجل، صحيح حشان الشاطر المجتهد."

ابتسمت بفخر وقالت: "تربيتي". ثم أشارت للصينية وقالت بمزيد من الفخر: "أتمنى أن يروق لك طعامي هذه المرة، رغم أنها ليست المرة الأولى التي تأكل فيها من صنع يدي."

نظر لها بدهشة للحظة، قبل أن يستوعب ما تعنيه ويقول: "أنت؟ أنت من تعدين لي الطعام الذي أجده عند باب غرفتي في كل مرة؟."

هزت رأسها في مرح، وابتسمت قائلة: "وذلك أقل ما يمكننا تقديمه، تقديرًا لمجهوداتك مع حسان شقيقي دون مقابل."

قال بحرج: "لا شكر على واجب يا شهيلة، فحسان.... قاطعته مصححة: "سهيلة ؟ اسمي نسيمة يا أستاذ".

احمر وجهه خجلًا قبل أن يقول: "آسف يا نسيمة، إن ما أفعله واجب علي، وتأكدي أنني سأستمر فيه سواء قدمتم لي الطعام، أم لا."

مازحته قائلة: "أهو تلميح لنا بالتوقف عن إرسال الطعام؟."

رد بلهفة: "كلا، بالطبع لا". ثم أدرك لهفته الجلية فأضاف بخجل: "أقصد بالعكس.. الطعام شهي للغاية."

نظرت إلى الصينية، ثم قالت: "علمت بوفاة الحاج سليم رحمه الله، وأدركت أنك عالق معنا لأسبوع، فطلبت من أمي أن نتولى مهمة إطعامك خلاله، ووافقت بصدر رحب."

قال لها بخجل: "لا" داعي لكل هذه التكلفة، مستورة والحمد لله."

لكن قلبه رَقَصَ فرحًا بسماع كلماتها، وأدرك أن بند الطعام قد تم توفيره، ولا داعي للقلق بهذا الشأن. قالت: "لا تكلفة ولا شيء. هذا أقل ما يمكننا أن نفعله من أجلك، ولولا العيبة.. لأعطيناك مالا تشتري به كل ما ترغب لأننا نخشى أن يُزعجك ذوقنا في الطعام".

أجابها بسرعة: "بالعكس، طعامكم طيب، وذوقكم جميل". تأمل ملامحها قبل أن يضيف: "جميل جدًا."

توردت وجنتاها خجلا وهى تقول: "وأرجو ألا تتعب نفسك بغسل الأطباق هذه المرة، سأمر عليك صباحًا بطعام الإفطار، وسآخذ منك هذه الصينية."

قال ممتنا: "شكرًا، شكرا جزيلا، لا داعي لكل هذا التعب."

أجابته بصدق تعبك راحة، هل هناك شيء تود تناوله غدا صباحًا؟."

قال بتواضع: "أبدًا.. كل نعمة ربنا حلوة."

شكرته وانصرفت مبتعدة، وقف كالتمثال يتأمل تلك الحورية التي رحلت وتركته بعد أن سلبت لبه وشغلت باله، ثم قرصه البرد، فأفاق من شروده، ودخل إلى غرفته مستسلما للواقع، مُغلقًا بابه، وممنيًا نفسه بعشاء شهي، ثم نوم عميق مريح.

***

قليلًا، وهو يُشعل الشمعة التي انتظرته هناك. حمل الشمعة، وتوجه نحو الركن الذي رأى فيه ذلك الظل متوهج العينين ألقى لهبها المتراقص بنوره على الركن، فبدد عتمته وظلمته، كاشفا عن فراغ تام.

بحث في أرجاء الغرفة بعينين متوجستين، لكنه لم يجد شيئًا، لا أثر لأي شيء، ولا لأي ظل يكسر وحدته التي غرق فيها.

فكر في إطفاء لهب الشمعة، ليخلد إلى النوم، لكن الفكرة بدت صعبة بعض الشيء، خصوصًا في ظل الخوف الذي يختلج في صدره، وضرباته المتسارعة.

وهكذا قرر أن ينتظر قليلا حتى تهدأ ثورة خوفه، قبل أن يسمح للظلام باستعادة حكمه للغرفة مرة أخرى.

لكنه سمع حركةً خافتةً تقطع صمت الغرفة من خلفه استدار سريعًا، فصدم الشمعة بكفه، سقطت أرضًا على الفور، وانطفأ ضوؤها، غمرته الحيرة حتى كادت تمزقه ما بين التقاط الشمعة ومحاولة إشعالها، والذهاب للبحث عن مصدر الصوت الذي سمعه.

في النهاية.. مالت كفة قرار يجمع بين الخيارين انحنى بحذر؛ متحسسا الأرض بحثًا عن الشمعة، دون أن يبعد ناظره عن المنطقة التي سمع الصوت منها.

وجدها، بحث عن الكبريت بكفّه، حتى وجده أشعل الشمعة مرة أخرى بيد مرتعدة، وحملها أمامه، قال بصوت زعزعه الخوف: من هناك؟ أنا مسلح!".

لعن صوته المرتجف ولعن خوفه الذي شابه ألف مرة، ولم ينس أن يلعن نفسه على كذبته الساذجة

بالتأكيد لن يُصدِّق مقتحم الغرفة، أيا كانت هويته، أنه مسلح!

سمع صوتا من خلفه همشًا زاحفًا التفت بسرعة ليراه يقف خلفه، حتى إنه شم رائحته النتنة بوضوح هذه المرة، رائحة هي مزيج بين اللحم المتعفن والبيض الفاسد، نظر في عينيه بعينيه المتوهجتين وهمس له: "لن تخرج."!

ثم نَفَخَ بأنفاسه المتعفنة ليطفئ لهب الشمعة حاول مروان أن يقاوم خوفه، الذي تمكن منه، لكن الهلع كان أقوى منه، شعر بالدوار يُسيطر عليه، حاول المقاومة لكن دون جدوى.

فقد وعيه.. وسقط على فراشه تاركًا الظل متوهج العينين وحده في الغرفة بلا مقاومة!

(9)

استيقظ من سباته على صوت طرقات خافتة على الباب انتفض، وقام فزعًا، راح يتلفت حوله مُتخِذا وضعية دفاعية، جال ببصره باحثًا عن ذلك الظل متوهج العينين الذي زاره في غسق الليل، تشنج جسده وهو يدور حول نفسه.

ارتخت عضلاته عندما لم يجد له أثرًا، وزاد هدوءه بعدما رأى النور يتسلّل من بين خصاص النافذة، هدأت وطأة قلقه ورعبه من المعروف أن الأشباح الشريرة أو الكيانات المخيفة لا تعمل في ورديات النهار.

عاد الطارق اللحوح للطرق على الباب مجددًا فانتزعه من بحثه المحموم سار متكاسلًا وهو يفرك عينيه تذكر نسيمة، وكيف وعدته أنها ستأتي في الصباح.

هندم من ملابسه، وحاول تصفيف شعره بأصابعه على عجل، قبل أن يرسم على وجهه ابتسامة بلهاء وهو يستعد لفتح الباب.

فتح الباب، لكنه لم يجد شيئًا، وهو ما أثار دهشته قبل أن يسمح صوتًا صغيرًا يقول: "أنا هنا يا أستاذ."

خفض ناظريه، فوجد حسان الصغير يقف بالأسفل يحمل صينية صغيرة، قال الصبي مبتسمًا : "صباح الخير يا أستاذ."

اختفت ابتسامة مروان على الفور، وحل محلها نظرة دهشة ممزوجة ببعض الاستياء، وسأله: "أين نسيمة؟ لماذا لم تأت؟."

قال حسان بابتسامته الطفولية: "أرسلتني بطعام الإفطار، وطلبت مني إعادة صينية العشاء."

لم يجب الوغد الصغير على سؤاله، قرر مروان أن يتجاهل الأمر، مشيرًا له بالدخول قائلًا: "تفضل بالدخول، أم أنك ستمتنع عن الدخول بدورك لأنني شاب أعزب؟."

لم يفهم الصغير المزحة، لأنه لم يكن موجودًا الليلة الماضية، دخل ووقف أمام (الطبلية) الكسيحة، رفع الصينية القديمة ليفسح المكان للصغير ليضع الجديدة وضع حشان صينيته وتناول القديمة من بين يدي الأستاذ، مستعدا للرحيل.

ناداه مروان قائلًا: "حسان.. أخبر أصدقائك أننا سنجتمع كل يوم بعد العصر، لتراجع دروسنا القديمة."

همس حسان بشيءٍ ما لم يتبينه مروان، لكنه شبه متأكد أن الوغد الصغير تحدث عن شرف والدته أو شيء من هذا القبيل.

سأله بصرامة: "هل قلت شيئًا؟."

أجابه الصبي ببراءة: "لا، قلت حاضر يا أستاذ."

لم يصدقه مروان، لكنه تظاهر بذلك على أي حال، شكره وأوصله حتى الباب، قبل أن يُغلقه من خلفه. عاد ليجلس أمام (الطبلية) العرجاء، وكشف عن محتويات الصينية فول وطعمية، وباذنجان قال لنفسه بسخرية: هذه مفاجأة غير متوقعة أبدًا!

بدأ يتناول طعام إفطاره، وهو يخطط ليومه سيستحم أولًا كما هي عادته، ثم سيقضي بعض الوقت في تلاوة ما تيسر من آيات الذكر الحكيم، يتبعها بصلاة العصر، قبل أن يخرج لملاقاة الأطفال، سيراجع مهم اليوم دروس اللغة العربية، وبالغد الرياضيات وهكذا دواليك، مُخطّطا أن يُراجع معهم جميع المواد قبل أن تنقضي مدته هنا.

وجد نفسه يتحدث عن المدة التي سيقضيها هنا وكأنها مدة سجن، وابتسم لهذه الخاطرة الطريفة، رغم المرارة التي شابت خلقه.

لكن ماذا سيفعل بعدما ينتهي من مراجعة الدروس مع الأطفال؟

الإجابة: ليس هناك أي شيء آخر يمكنه أن يفعله!

لكن ماذا لو حدثت جريمة قتل أخرى بين جنبات البلدة؟ والسؤال الأهم ماذا لو لم يحدث المزيد من جرائم القتل؟

اعتاد على التفكير دوما بطريقة منطقية، وهكذا فصل السؤالين عن بعضهما البعض.

بدأ أولًا في التفكير في السؤال الأقل أهمية: ماذا لو حدثت جريمة قتل أخرى بين جنبات البلدة؟

أولا سيتوجب عليه أن ينأى بنفسه عن دائرة الشبهات، لأنه الغريب الوحيد ها هنا، ثم أن يزيد من حمايته لنفسه، لأنه على الأغلب أجلا أو عاجلا، سيجد نفسه ضيف شرف في قائمة الضحايا، وهذا أمر منطقي إلى حد كبير، لا سيما وأنه وحيد تماما هنا.

لكن كيف سيقوم بذلك؟

قرر تأجيل التفكير في إجابة هذا السؤال إلى الوقت المناسب.

أما السؤال الثاني: ماذا لو لم يحدث المزيد من جرائم القتل في البلدة؟

لا شك في أن الأمر سيصبح مملا للغاية، لكنه على الأقل سيوفر له قدرًا لا بأس به من الاطمئنان، لأنه سيضمن ألا يُزين اسمه قائمة الضحايا.

عليه أن يجد طريقة ليقتل بها مله، على الأقل حتى يتاح له الرحيل من هذا المكان تناول لقمة أخرى، وبدأ يلوكها بروتينية، وهو غارق في بحر أفكاره، قبل أن يتوقف فجأة عن المضغ، إذ واتته فكرة قد تكون في غاية العبقرية، أو في منتهى الغباء، فالفارق بين العبقرية والغباء شعرة، قد لا يُدركها المرء بنفسه، لكن كل من حوله سيدركونها بكل تأكيد، فالغباء سر لا يمكن للمرء إخفاؤه.

لكن الفكرة التي راودته كانت من وجهة نظره في منتهى العبقرية!

وعلى الفور ترك الطعام، ونهض ليجلس على طرف فراشه، مستغرقا في تأملها. يا لها من فكرة عبقرية

(10)

استيقظ فزعًا، تلفت بحيرة حوله لبرهة، قبل أن ينجلي غبش الحيرة عن وعيه، ويُدرك أين هو كان في حقله، جالسًا على الأرض، مستندا بظهره إلى جذع

شجرة، ويبدو أنه قد غط في سبات عميق دون أن يدري.

نهض متكئًا على فأسه، ترنّح قليلًا، محاولاً استعادة توازنه للحظات لام نفسه على تماديه في السهر ليلة البارحة في غرزة عم علي حتى مطلع الفجر، لكن السهرة كانت حلوة، والصحبة أحلى.

سهروا بالأمس مع (تعميرة) جديدة أحضرها عم علي، قال إنه صنف عالي يُعمّر الدماغ ويضبط الأحوال، وقد صدق اللعين في قوله، فلم يكد بيومي يشرب (نفسين) من الجوزة، حتى انطمست حواسه وغاب عن الوعي، فقد شعوره بالوقت، ولم يدر بنفسه حتى رأى خيوط الفجر تلوث عتمة الليل.

نهض مترنحا مُعتذرا لبقية الموجودين الذين لم يعرف عددهم، أو حتى هوياتهم. خرج من (الغرزة) الملبدة بالدخان الأزرق، وتلقى نسمات هواء البحر البارد بترحاب، أفاقه الهواء العليل قليلا، لكنه ظل يشعر بسعادة لا يعرف لها سببًا، همس لنفسه: "الله يخرب بيتك يا عم علي."

تابع سيره مُترنّحًا، مُفكّرًا في العودة إلى منزله، لكن حرارة شمس الصباح لسعت رأسه الأصلع، وجعلته يغير رأيه.

إذا عاد لمنزله الآن سيغتسل وينام حتى يضع الليل أوزاره، ولن يفيده هذا في ظل الظروف الاقتصادية الطاحنة التي يمر بها، كما أنه بحاجة للنقود؛ ليجني بعض النقود لدفع ثمن جوزة جديدة من عم علي، فقد أعجبه هذا الصنف الجديد حقًّا.

ابتسم لنفسه وهو يُغير مساره نحو حقله سيعمل قليلا، ثم سيعود إلى المنزل، وبهذا يضرب حجرين بعصفور واحد، لا.. سيضرب عصفورين بحجر واحد أما الحجر الثاني.. سيشريه ليلا مع أصدقائه في (الغرزة).

راقت له هذه المزحة، فابتسم لخفة دمه، وبعد دقائق من السير، وجد نفسه أمام حقله، حائرًا في تذكر السبب الذي جعله يأتي إلى هنا (مسطولا)، لكنه وجد ذاكرته خاوية على عروشها.

لكن طالما جاء إلى هنا، فما المانع من العمل قليلا؟

أمسك بفأسه الذي اعتاد تركه بجوار الشجرة الضخمة، وتحرك بخطى متثاقلة ليعمل في أرضه وكان بيومي، والحق يقال رجلًا قويًا، يُمكنه أن يحرث حقلا كاملا، ولا (أجدعها) جاموسة!

وهكذا استمر في العمل، والعرق يتصبب من جبهته وعنقه، ملطخا جلبابه الداكن. وبعد ساعات من العمل... شعر بالدوار يغزو رأسه، وأدرك أنه بحاجة لنيل قسط من الراحة، وهكذا سار مستندًا على فأسه، متوجها لشجرته الأثيرة، وهناك.. استند بظهره إليها، مُغْمضًا عينيه لبرهة.

لكنه لم يفتحهما مجددًا إلا عندما هاجمه ناموس الليل، صفع نفسه دون أن يدري، محاولا طرد الحشرات عن وجهه، وهكذا استيقظ ليجد أنه قد نام تحت جذع شجرته حتى حلول الليل.

نهض وفكر في الذهاب إلى (غرزة) عم علي، لكن رائحة عرقه التى فاحت حتى هاجمت أنفه، أجبرته على تغيير خطته سيذهب للبيت، ليستحم ويأكل (لقمة) سريعة، قبل أن يذهب ليسهر مع أصدقائه.

وبالفعل توجه نحو منزله، حيث يعيش وحيداً، بعد وفاة والديه، تذكر (الصنف الذي جلبه لهم عم علي واشتاق لذ (جوزة)، وهكذا قرّر أن يختصر الطريق ليصل إلى منزله سريعًا.

لكن لا وجود لأي طريق مختصر سوى عبر المقابر تردد للحظة وهو ينظر للقمر، ورغم أنه رجل (جدع) طويل القامة عريض المنكبين إلا أنه وجد نفسه يخشى سبر أغوار المقابر ليلا، هدأ من روعه، قبل أن يقول لنفسه : وماذا سيحدث؟ سأعبر المقابر سريعًا!

وهكذا دخل إلى المقابر، سار بين شواهد القبور الرخامية، التي تعتلي المقابر، وتتزين بأسماء أهل الجزيرة اللذين توفاهم الله أسرع الخطى، محاولاً اختصار مدة وجوده هنا قدر الإمكان.

شعر بخطوات خافتة تتبعه، وكأن.. وكأن هناك من يتبعه، توقف للحظة .. فتوقف الصوت، نظر خلفه بطرف عينه بحذر، لكنه لم يجد شيئًا. تنفس بصعوبة، وعدل من ياقة جلبابه بيد مرتجفة قبل أن يواصل سيره، وهذه المرة.. لم يلبث أن سمع حفيف الخطوات يتردد من خلفه مرة أخرى، هذه المرة..

قرّر أنه لن يُجازف بالتوقف، وأنه سيسرع الخطى قليلا، أملًا في الخروج من هذا المكان سريعًا، ليرتاح من هذه الأوهام المرعبة.

لكن صوت الخطوات أسرع خلفه، وكلما زاد من شرعته.. زاد حفيف الخطوات من خلفه أسرع مرة أخرى، حتى وجد نفسه يركض في عتمة الليل، يقطع طريقه بين قبور لا يعرف أصحابها، في متاهة لم يعد يعرف كيف يخرج منها.

فجأة.. توقف، لأنه سرعان ما وجد نفسه على حافة قبر مفتوح (عين) مُظلمة كما يسمونها، توقف في اللحظة الأخيرة، وأخذ ينشج بعنف، توقف صوت الخطوات التي تطارده، وضع يده على صدره، الذي أخذ يعلو ويهبط بشدة، وكأنه يُهدئ من روع نفسه.

نظر إلى الخلف، ممشّطًا المقابر بعينيه بيأس، بحثا عن أي أثر لمطارده، لكنها كانت خاوية تماما، إلا من أموات ذهبوا للقاء وجه كريم.

استدار مجددًا نحو العين المفتوحة، واعتقد أنه سمع صوتًا ينبعث منها، تأمل الظلام الدامس وهو

يُغلق عينيه قليلا، وبالفعل .. ظن أنه قد رأى حركة خافتة تصدر من أعماقها.

أمعن النظر، حتى وجد من يتسلق الأرض، محاولًا الخروج من قلب القبر، شعر بالدماء تتجمد في عروقه، حاول ابتلاع ريقه.. لكنه فشل في ذلك فشلا ذريعًا كما حاول التحرك سريعًا.. لكن بدا أن خوفه قد شله تمامًا.

وسرعان ما خرج رجل يزحف من القبر، قبل أن يعتدل واقفا أمامه.

رجل ضخم البنية، يُزيّن وجهه شارب كثيف، ويتوج رأسه طربوش أحمر، ويرتدي معطفا أسودًا من الصوف، اتسخَ بغبار القبر؛ حتى كاد يتحول للون الأبيض.

أمسك الرجل بمنشة ضخمة بين يديه، واحدة من تلك التي يستخدمها الناس لطرد الحشرات والذباب في أيام الصيف القائظة، أو الناموس والبعوض في ليالي الشتاء الباردة.

وأدرك هويته على الفور.. وما زاده ذلك إلا رعبًا فوق رعبه فكر في الهرب، أو التحرك حتى.. لكنه لم ينجح

في ذلك، إلا عندما من الرجل يده نحوه محاولا الإمساك به كانت هذه الحركة هي إشارته بالتحرك، وهكذا ركض.. كما لم يركض في حياته من قبل أبدًا.

ومن خلفه .. رَكَضَ الرجل، ومنشته تهتز في يده يمينا ويسارا حاول الهروب من المكان، لكن المقابر متاهة، لا يحفظها إلا الأموات واللحادون، ركض يمينًا عبر ثلاثة قبور، ثم انعطف يسارًا.

قصد بذلك الهروب من مطارده، لكنه سرعان ما وجد نفسه في منطقة مغلقة حاصرته فيها القبور من اليمين واليسار، بينما ارتفع سوز عالي من خلفه ليمنعه من التقدم، أما من أمامه فقد تقدم الرجل ملوحا بمنشته، ورائحة غريبة تفوح من المكان بأكمله.

قال الرجل بصوت أجش : أتيت بقدميك إلى حيث يودع الناس أحبائهم، لكن لا يخرج من هنا كل من يدخل، فبعضهم يقضى أبد الدهر في قلب القبور."

صرخ بيومي بخوف: "لا تقترب أنا حي.. لست ميتًا."

قال الرجل ساخرًا: "بعد .. لست مينا بعد! لكن أوانك قد آن!".

اقترب منه الرجل ملوحا بمنشته، ازدادت الرائحة الكريهة، وشعر بيومي بالدنيا تدور من حوله، وبدوار حاد يكتنف رأسه، وباللون الأسود يصبغ الموجودات حاول المقاومة .. لكن شيئا ما لم يكن صحيحًا، ترنح في مكانه للحظات قبل أن يسقط أرضًا.

وقبل أن يُغلق عينيه، رأى ظل الرجل يستطيل ويزداد طولا وعرضا، حتى كاد يحتل المنطقة بأكملها، وكلما اقترب منه الرجل.. ازداد ظله طولًا، وازدادت نظرة الشر في عينيه طرًا.

أغلق بيومي عينيه، وقد أدرك أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي يُغلق فيها عينيه، فهذا الرجل يضمر له شرًا.. شرًا لم ير له مثيلًا من قبل! وربما لن يرى له مثيلا بعد ذلك!

(11)

بعد العصر، ذهب كعادته للأطفال اليوم هو اليوم المحدد لمراجعة ما درسوه في الرياضيات خلال العام الدراسي، لكن فور دخوله إلى المنطقة الواسعة التي يسميها الأطفال (الفسحة)، وهي كلمة يقصد بها

المكان الفسيح، نظرًا لمساحة المنطقة الشاسعة، لاحظ تغييرا غير مألوف.

هذه المرة، وصل بعد الأطفال أيضًا، لكن ما أثار دهشته حقًا كان وجود أولياء أمورهم معهم، رحب بالأهالي ونظر لهم بحيرة، لكنه لم يعط الأمر أكبر من حجمه، جلس في مقعده المعتاد، اطمأن على الأطفال وشرع في المراجعة بكفاءة وشرعة.

عند انتهاء الدرس، دخل أولياء الأمور الفسحة للحديث معه، كان بينهم والد هنادي، وشقيق عمر الأكبر، وشقيقتا حسان وفريد الكبيرتان بالطبع يعرف نسيمة، لأنه سبق وأن رآها من قبل، تعلقت عيناه بها وهي تربت بحنان على رأس شقيقها.

ابتسمت له، فابتسمت له الدنيا، وازدادت الجزيرة بهاء، ابتسم لها ابتسامة دافئة، ثم سرعان ما انتبه الحضور الآخرين فوزّع ابتساماته بنفس الحماس والدفء على الجميع.

جلس أولياء الأمور أمامه، وبدأ والد هنادي بالحديث قائلًا بنبرة جادة: أهلًا يا أستاذ مروان. أنت تعرف

الظروف الصعبة التي تمر بها القرية الآن، وبتلك الجرائم المروعة التي لا تتوقف."

قال شقيق عُمر بنبرة مليئة بالتلميحات: "منذ أن وصل غريب إلى أرض جزيرتنا."

فهم مروان التلميح على الفور، فرمقه بنظرة حادة، وسأله بغضب: "ماذا تقصد؟."

تدخلت نسيمة في الحوار قبل أن تتفاقم الأمور، وقالت بصوتها الهادئ: "بالتأكيد لا يقصد شيئًا سيئًا، لكننا جئنا لنطلب منك تقديم موعد الدروس قليلاً".

تولى والد هنادي دفة الحديث مرة أخرى، وتابع قائلًا: "أنت تجتمع بهم الآن بعد العصر، وتنتهي قبل المغرب بقليل، لكن لو اجتمعت بهم ظهرًا، فربما تنتهي عصرًا، مما يمنحنا وقتا أطول قبل غروب الشمس."

علق شقيق عمر بسخرية: "إلا لو كان الميعاد مقصودًا."

للمرة الثانية يُطلق شقيق عمر تلميحه السخيف، هذه المرة اختار مروان التعامل مع الأمر ببرود، قائلًا: "يمكنك منع شقيقك عن القدوم كما تعرف."

نظر له شقيق عمر شذرًا، وقد بدأ يشعر بالضيق من برود مروان فرمقه بنظرة ساخرة متعمدا استفزازه: "ومن يدري، ربما ينقذ هذا حياته."

شعر مروان بالدماء تغلي في عروقه، لكنه قرر التحلي بأشد درجات الهدوء، وأجابه: "أطال الله لكم في غمره."

كاد أن يطلب من الصغير عدم الحضور مرة أخرى لكنه كبح جماح غضبه بصعوبة، لأن الصبي برئ من تصرفات شقيقه.

عاد لينظر إلى نسيمة، ووالد هنادي، وقال: "حسنا، لا بأس. لا مانع من ذلك."

ثم نظر للأطفال قائلًا: "سيكون ميعادنا في قادم الأيام بعد صلاة الظهر مباشرة، على ألا نتأخر لما بعد العصر."

ثم نظر لشقيق عُمر قائلًا بنبرة تحمل تحديًا خفيًا: وعلى من يخشى على حياته أن يتجنب الحضور، عله يفلت من براثن الوحش الشرير القادم من المدينة."

قال له شقيق عُمر بثقل دم يُحسد عليه: "ليس من الضروري أن يكون وحشًا شريرًا، بل يكفيه فقط أن يكون نذير شؤم يجلب معه البلاء والموت أينما ارتحل."

كانت وجهة نظر تحترم، فمن حق أهل الجزيرة أن يشكوا به، ناهيك عن أن اعتباره نذير شؤم أخف وطأة بكثير من الشك فيه كقاتل عتيد، قرر أن يصمت، وألا يرد على اتهامات ثقيل الظل، لأنه لا داعي لتسليط بؤرة من الضوء على هذا الأمر، ولأن الصمت أحيانًا أبلغ من الكلام.

وهكذا ابتلع غضبه وقرّر أن يدع الأمر يمر مرور الكرام، كانت نسيمة تتدخل في الأمر دفاعًا عنه، لكنه زجرها بنظرة صارمة، فقررت ابتلاع لسانها والتحلي بالصمت، قرر أن يُغيّر دفة الحديث، فسألهم: "لكن لماذا أتيتُم إلى هنا اليوم؟ أقصد أهلًا وسهلًا بكم في أي وقت، لكن لماذا اليوم تحديدًا؟."

قال والد هنادي بجدية: "لأنهم وجدوا بيومي عمران مقتولًا في المقابر، وعلى وجهه أعتى أمارات الفزع تمامًا كسابقيه."

هر مروان كتفيه قائلًا: "ربما دخل المقابر، وأخاف نفسه حتى الموت."

تدخلت شقيقة فريد في الحديث بصوت خافت وهي تنظر أرضًا: "كنا لنظن ذلك، لولا...".

صمتت ونظرت أرضًا، يبدو أنها تعاني من مشاكل في التواصل، أو أنها خجولة بشكل غير عادي، تابعت نسيمة الحديث من حيث توقفت، وقالت: "لولا المنشة التي وجدوها بجوار الجنة."

تطلع لهم بغير فهم، وظهر الغباء جليًا على وجهه سألته نسيمة: "ألم تفهم بعد؟."

سألها بدهشة: "أفهم ماذا ؟."

قال والد هنادي بجدية: "هوية قاتله؟."

قال بغضب، وقد اعتقد أنهم يلقون باللوم عليه مرة أخرى: "وكيف لي أن أعرف."

قالت شقيقة فريد الخجولة بصوت خفيض للغاية: لأن القاتل هو .. هو أبو منشة!."

***

لم يكن هناك قرة قول في جزيرة زهرة الجبل، مما اضطر الصول زكريا للعمل في أقرب قرة قول، على أن يعود في الإجازات والعطلات ليقضي الوقت مع أسرته.

كان الصول زكريا مخلصًا لعمله، وللشرطة، وللقانون. مما جعله محبوبًا للغاية بين أهل الجزيرة، ومكروها بشدة بين جموع الأشقياء.

استمر الصول زكريا في أداء وظيفته على أكمل وجه محاربًا الجريمة، ورادعًا للأشرار، الذين سئموا التزامه بالقانون واستقامته المملة. حتى تمكن من القبض على زعيم عصابة محلية، وكانت ضربة موجعة للأوساط الإجرامية، فقد كان هذا الرجل بمثابة أسطورة فيما بينهم، ولم يتوقع أحد أن تتمكن الشرطة من القبض عليه يومًا.

وهكذا اجتمع رجال العصابات يوما، في أحد أوكارهم نحوا خلافاتهم واختلافاتهم جانبا مؤقتًا، بعدما

أدركوا جميعًا أن الدور قادم عليهم لا محالة وأنهم سيشرفون زنازين السجن إذا لم يتصدوا للصول زكريا اللعين هذا.

واتفقوا على خطة ذكية وشرعوا في تنفيذها بسرعة، قبل أن يستكمل الصول زكريا رحلة القبض عليهم واحدا تلو الآخر.

وبالفعل في اليوم التالي وصلت إخبارية للقرة قول عن عملية تهريب غير شرعية، تتم عن طريق البحيرة التي تفصل الجزيرتين، ولأن الصول زكريا من أبناء تلك الجزيرة، لم يجدوا خيرا منه ليحقق في الأمر.

هكذا اجتمع به السيد المأمور، وأمره بالعودة للجزيرة للتحقيق، على أن يُرسل زكريا في طلب الدعم عندما يكتشف المعلومات الكافية، كما حذره كذلك من مغبة الاندفاع، لأن أحدًا لن يستفيد شيئا لو أصيب أو لا قدر الله حدث ما لا يحمد عقباه.

عاد زكريا للجزيرة، وبمجرد أن وطأت قدماه أرض الجزيرة، بدأ في الاستقصاء عن الأمر، حتى وصلته معلومات عن نشاط مشبوه في منطقة نائية على أطراف الجزيرة، ودون تردُّد؛ ذَهَب ليتأكد من

المعلومات، وما إن وصل إلى هناك، حتى وجدهما يقفان أمام بعضهما البعض، وكأنهما في خضم عملية تسليم.

هذا مأمون الحرامي، وذاك المجرم الشهير بطفاشة، لم يكن هناك وقت لطلب الدعم، أو العودة في وقت لاحق، وهكذا أشهر مُسدّسه بيد، وأمسك بمنشته الشهيرة بالأخرى، وتقدم من خلف أجمة الشجيرات الكثيفة مطالبا إياهما بالتوقف في مكانهما.

فعلًا ما طلبه منهما، لكن ابتسامة سخرية مقيتة ارتسمت على وجهيهما، لم يفهم سببها، لكنه سرعان ما أدرك عندما بدأ أفراد العصابات يخرجون من مخابئهم، ليُحيطوا به، ويُحاصروه فيما بينهم.

دار حول نفسه، شعر بالفزع يتسلل إلى نفسه، قبل أن يدرك ما يحدث، لقد وقع فريسة لمكيدة محكمة دبروها له، ابتسم بمرارة وهو ينش ذبابة عن وجهه بمنشته، وفكر في اختياراته.

يمكنه أن يُسقط منهم أربعة أو خمسة أوباش، لكن البقية سيلتهمونه حيًا.

وهكذا ألقى بمسدسه أرضًا، ورفع يديه ومنشته، باستسلام وهو يقول: "حسنًا يا رجال، لقد أوقعتم بي."

قال طفاشة بصوته الأجش المميز: ولن تخرج من بيننا حيًا."

قبل أن يلتفت ليتحدث إلى طفاشة، شعر بسائل دافئ يغمر جسده، رفع ناظريه ورأى صبيين صغيرين يعتليان فرع شجرة، يغفرانه بالبنزين، فهم ما يرمون إليه، اتسعت عيناه في فزع وهو يرى السيد قشطة المجرم العتيد، وهو يُشعل سيجارته بعود ثقاب، قبل أن يقول : "سلام يا حضرة الصول."

ويلقي بالعود نحوه، أمسكت به ألسنة اللهب، وأبت أن تتركه، حاول أن يركض نحو البحيرة، ليلقي بنفسه بين أحضان مياهها، لكنهم دفعوه بعيدًا عنها باستخدام فروع الأشجار، حتى سقط أرضًا ومات بينهم، متأثرًا بحروقه وآلامه.

***

قال والد هنادي : يقال إنه يترصد لكل من يرتكب خطية أو سوء ما، لينتقم منه ما زالت روحه حبيسة

تلك الجزيرة يظهر للآثمين، ويضربهم بمنشته ضربة واحدة، ليسقطهم صرعى في الحال."

قال مروان في تدبر: "إذن في (أبو منشة) مجرد أسطورة، عن صول شرطة قديم مات بطريقة بشعة وما زالت روحه تظهر للآثمين، ليقتلهم بمنشته؟."

قال شقيق عُمر الشاب ذو الدم الثقيل: "يا لك من عبقري، لقد فهمت الأمر من أول مرة، رغم أننا شرحناه بمنتهى البساطة، وبالتفصيل الممل."

قال مروان بغضب: هناك وجوه تجمد العقل من شدة قبحها."

قال الشاب وهو يقترب منه في تحدي: "من تقصد؟."

رفع مروان يديه في براءة وهو يقول: "لا أقصد أي شيء". ثم ابتسم بسخرية قائلًا: "إنها مجرد معلومة عامة، أقولها بمنتهى البساطة، وبالتفصيل الممل.. لا أكثر ولا أقل."

قالت نسيمة في محاولة لتهدئة حدة الأمور قليلًا: "على أي حال، هذه ثالث أسطورة تعود للحياة وتقتل ضحية جديدة، وبالتالي.. فقد أصبحت الأمور

خطيرة للغاية، لذا نرغب في تقديم ميعاد الدروس قليلًا."

قال مروان بجدية: "أتفق معكم تمامًا، رغم أنني لا أصدق تلك الأساطير أبدًا، ومقتنع تمام الثقة بأن هناك قاتل حقيقي من بين أهل الجزيرة."

قال ثقيل الظل: "وأنا كذلك، باستثناء أنني مقتنع تمامًا بأنه ليس من أهل الجزيرة."

لم يجبه مروان وتجاهله تماما، وكأنه سراب ليس أكثر، وقال: "على أي حال، أريدكم أن تقللوا من الحديث عن الأساطير أمام الأطفال، لأنهم بدأوا يفكرون بطريقة لا تعجبني، ويعزون كل شيء إلى الخرافات، وهذا تدمير الأسس تفكيرهم المنطقي."

وعدوه بأنهم سيحاولون القيام بذلك قدر الإمكان ورحلوا بصحبة أطفالهم، وتركوه وحيدًا، يُفكر فيما حدث، ويتذكر كلمات ثقيل الدم والظل التي أكدت ضرورة الالتزام بالقرار الذي أخذه بالأمس.

ففي حين بدت الفكرة عبقرية بالأمس، إلا أنها بدت اليوم ضرورية.. أكثر من أي وقت مضى!

وعليه أن يبدأ بتنفيذها في أقرب وقت ممكن.

(12)

فرد الرعب أجنحته على الجزيرة، وعشش الهلع في قلوب سكانها، إذ وقعت ثلاث جرائم قتل مروعة، في جزيرة هادئة، وفي أقل من أسبوع واحد، في ظل غياب كامل للشرطة، رغمًا عنهم بسبب تخريب القوارب.

اجتمع نفر من أهل القرية، مدفوعين بالقلق، وذهبوا للقاء عمدتهم الحاج طلال .. العمدة الذي ورث العمودية عن والده، وسيورثها لابنه من بعده بأمر الله تعالى، طلبوا مقابلته، فسمح لهم الخدم بالدخول وأرشدوهم للجلوس في غرفة الاستقبال الفسيحة لينتظروا للعمدة.

تعمد العمدة التأخر في الظهور، لأنه يعرف جيدا أن الانتظار يزيد من هيبته في قلوب الناس، أما لو شعروا بسهولة لقائه والوصول إليه فستقل هيبته وسطوته على نفوذهم.

هبط العمدة من الطابق العلوي بخطى واثقة ومتأنية تعلقت به عيون الوفد الصغير من أهل الجزيرة، لف عباءته السوداء الثقيلة حول جسده، وهو يهبط

بتؤدة وقف أمامهم دون حراك، حتى تحرك أحدهم وانحني أمامه ليقبل يده، وهو فعل يُحبّه العمدة، رغم أنه يسحب يده ببطء وهو يقول: "أستغفر الله."

وهكذا تحرك عدة آخرون، وقبلوا يده تباعًا، قبل أن يدرك أن البقية لن يفعلوا الأمر نفسه، فتحرك ليجلس فيما بينهم، وقال: "ما الأمر؟."

تبادلوا نظرة عامرة بالقلق فيما بينهم، قبل أن يقول أحدهم بتردد: تعرف سبب حضورنا يا حضرة العمدة."

رمقه العمدة بنظرة صارمة، قبل أن يقول: "تكلم يا ولد."

قال الولد الذي لم يكن سوى رجل في الأربعين من عمره، أي أنه في نفس سن الغمدة تقريبًا، لكن الناس مقامات بارتباك: "إننا نخاف على نسائنا وأطفالنا يا حضرة العمدة، نخشى أن تطالهم يد أساطير الشر".

جال بعينيه فيما بينهم، قبل أن يستقر ناظراه على الرجل الذي تحدث وقال: "تأكدوا أنني أمرت شيخ

الغفر بالتحري عن الأمر، ولن يمضي وقت طويل حتى تمسك به."

تبادل الحضور همسات خافتة بحذر فيما بينهم، قبل أن يقاطعهم العمدة مُستطردًا في حديثه: "نشك أن ما يحدث من مكائد شحتة الدجال، الذي يقطن الجزيرة المجاورة، ونشك أيضًا أنه سخر من جنوده من الجن ليعيثوا في ربوع جزيرتنا فسادًا، مخططًا لاستغلال الفوضى، ليرسي قواعد مملكته الشريرة في أراضينا".

أطلق أحد الحاضرين شهقة مكتومة، التمعت عينا العمدة، بعد أن أدرك وقع كلماته الثقيلة على قلوب الموجودين فتابع بثقة تامة: "لكننا لن نسمح لهم بتحقيق مراده، وستقاوم بشراسة لردعه عن تدنيس أرض قريتنا."

تعالت صيحات الاعتراض على خبث شحتة الدجال وتأييدًا لكلمات العمدة القوية استحسن موافقتهم وأحب شعوره بالسلطة، فنفخ صدره في زهو وهو يقول: "لا تقلقوا يا رجال فجزيرة زهرة الجبل بأمان تام."

تعالت الهمهمات مرة أخرى بين الحضور، قبل أن ينهض أحدهم، وهو رجل نحيل قصير، يرتدي جلبابًا أزرق اللون، يبدو واسعًا عليه بشكل مثير للضحك، رفع يديه للأعلى ليخرج يديه من كمي جلبابه وقال بتردد: "لكن يا حضرة العمدة، كما ذكرنا من قبل.. نحن نخشى على أمان أهل بيوتنا من هذه الجرائم، وحتى يضع شيخ الغفر ورجاله حدًا لشرور شحتة الدجال يجب أن نفعل شيئا لحماية أنفسنا."

ابتسم العمدة، فقد كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها ليفرض هيمنته على الجميع، قال: "سنمتنع عن التجول خارج منازلنا بعد الساعة الثامنة مساءً وسيعاقب كل من يخترق هذا الحظر، هل لديكم أي اعتراض؟."

لم يعترض أحدهم، ولم تتعال الهمهمات هذه المرة وخيم الصمت على الحضور، فقد ساد اتفاق ضمني بينهم، وكان هذا كافيًا لحضرة العمدة، الذي نهض قائلا: "توكلت على الله". أشار نحو الباب بطرف خفي وهو يقول: "نورثم يا حضرات."

فهموا جميعًا الرسالة، ونهضوا مودعين تابعهم بنظراته حتى خرج آخرهم من الباب، أغلقه أحد الخدم من خلفهم، ثم رفع عقيرته بالنداء: "عبد المعبود.. يا عبد المعبود."

جاء شيخ الغفر مُسرعًا وهو ينظر للأرض، لا يجرؤ عبد المعبود على رفع ناظريه عن الأرض أمام سيده كنوع من الاحترام المبالغ فيه، قال بصوت خافت "أوامر يا سعادة البيه."

"أرسل إلى شحتة فور عودة القارب للعمل، أريده أمامي في التو واللحظة."

رفع عبد المعبود ناظريه ونظر لسيده بدهشة وحيرة، وهو يقول بغير فهم: "تريد شحتة الدجال هنا لا أفهم! لقد أخبرت أهل القرية أنه مصدر كل الشرور."

ابتسم العمدة بخبث وهو يقول: "وأنا بالفعل أشك في ذلك، لكن وجود شحتة هنا ضروري لسببين."

صمت العمدة ليزيد من التشويق، وانتظر عبد المعبود حتى يسأله عن السببين، لكن الأخير خذله ولم ينبس ببنت شفة، نظر له العُمدة في غيظ،

فانتبه الرجل وقال باهتمام وما هما يا سعادة البيه؟."

ابتسم العمدة، ونظر لنقطة بعيدة وهو يقول، وقد بدأ يغرق بين أفكاره: "السبب الأول على افتراض أنه السبب وراء هذه الأحداث، فلا يجب أن ينعم بالفوائد كلها بمفرده، يجب أن يكون لنا نصيب، وبالتالي سنحتاج للتحدث معه. أما السبب الثاني، على افتراض أنه ليس الفاعل، فيجب أن نتعاون الاستثمار الوضع الحالي لمصلحتنا."

كاد عبد المعبود أن يثني على تفكير وذكاء مولاه وسيد نعمته، لكن العمدة تابع حديثه قائلا بحزم: "فور عودة القارب للعمل، هل تفهم ؟."

هز رأسه بالموافقة، وانسحب من أمام سيده دون أن ينطق بكلمة أخرى.

***

سار مروان على ضفاف ترعة صغيرة تخترق قلب الجزيرة، تتعرج لتمر بجوار بعض الحقول، ويستخدمها بعض الفلاحين معدومي الضمير في ري

محاصيلهم بعد أن يشقوا ممرات صغيرة منها تؤدي إلى الحقول.

هذا المكان هو ملاذه الخاص الذي يأتي إليه كلما أثقلت الأفكار كاهله، يأتي ليفكر ويُرتب أفكاره المضطربة بشكل جيد، وهو الشيء الذي قلما حدث قبل ذلك، لأن أوقاته في الجزيرة اتسمت بالهدوء.

فكر بالأمس ليلا، في ضرورة أن يبدأ تحقيقه الخاص لكشف ستار تلك الجرائم، لسببين، أولًا؛ لأنه شرعان ما سيصبح هو المشتبه به الرئيسي في تلك الجرائم، لأنها بدأت بمجرد وصوله تقريبا، ولأنه الغريب الوحيد الموجود بين جنبات القرية.

وثانيًا؛ لأنه مقتنع تمام الاقتناع من وجود قاتل في ثنايا الجزيرة، لكنه لا يعرف بعد كيف يرتكب جرائمه ولا السبب الذي يدفعه لذلك، لكنه أيضًا مقتنع تمامًا أنه سيشق طريقه لقائمة الضحايا في وقت قريب.

وهكذا اعتلت فكرة بدء تحقيقه الخاص قائمة الضروريات، لحماية نفسه أولاً، وتبرئته ثانيًا، وتزجية الوقت ثالثًا.

وهكذا قادته قدماه، بلا وعي، إلى مكان لم يتوقع أنه سيجد نفسه أمامه يومًا، إلى المقابر، وقف أمام المقابر، ليلًا، وحيدًا، وسرعان ما أدرك أنها نفس الظروف التي مر بها بيومي قبل أن يلقى حتفه.

لكنه يعرف جيدًا أن أبو منشة لن يهاجمه هذه الليلة، لأنه لم يحدث من قبل أن هاجمت نفس الأسطورة مرتين متتاليين، ولم تقتل أي أسطورة ضحيتين أبدا، إذا فمن المفترض أن يكون دور أبو منشة قد انقضى وربما تبدأ أسطورة جديدة في القتل في الأيام القادمة.

أو أن القاتل قد اختفى مؤقتًا، ويستعد لارتكاب جريمة جديدة، لكن ليس الليلة.

وهكذا استجمع البقية الباقية من قواه قبل أن يدخل إلى المقابر، وطأ أرضها بقدميه بثبات، وسار للمكان الذي وجدوا فيه جثة بيومي، وهو مكان سيعرفه بمجرد أن يراه.

كيف سيعرفه؟ من الأوراق المتناثرة في الأرجاء والتي عادة ما يستخدمها الناس لتغطية الجثث لحين قدوم المسؤولين، وهكذا سار متجولا في أرجاء

المقبرة، يشق طريقه بين القبور وهو يقرأ الفاتحة في سره، حتى وجد شيئًا لفت نظره عين قبر مفتوحة... تطالعه كفم رجل جائع.

لكن لم يكن هذا ما أثار انتباهه، بل هي آثار الأقدام المحيطة بها، والتي كان من الممكن تجاهلها واعتبارها خطوات عادية لزائر أو لحاد، لولا أنها قادمة من الداخل إلى الخارج، وهو ما يعني أن هناك من شق طريقه من قلب القبر خروجًا إلى الخارج.

وهذا شيء غير اعتيادي بالمرة، أليس كذلك؟

لماذا سيختبئ أبو منشة داخل قبر؟ أسطورة مرعبة مثله لن تلجأ لهذه الحيلة الساذجة والسؤال الأهم... منذ متى تترك الأساطير آثار أقدام على الأرض بمثل هذا الوضوح؟

زادت هذه الآثار من اقتناعه بفكرته، هذا قاتل يتظاهر بأنه مجموعة من الأساطير المخيفة، ليقتل ضحاياه.

لكن ما الدافع وراء ذلك؟ وكيف يرتكب جرائمه؟ ما زال عليه أن يجد إجابات لهذه الأسئلة، في أقرب وقت ممكن!

(13)

أرسى الليل قواعد حكمه، وغَربت الشمس امتثالاً لحضرته، بسط الظلام والسكون أثوابهما على الأرجاء ومع زيادة الخوف في قلوب السكان، ورعبهم من الأساطير القاتلة التي لوثت هدوء جزيرتهم، ورغم أن حظر التجوال العُرفي سيبدأ بالغد، وليس اليوم، إلا أن الأقدام هجرت الشوارع، فحرمتها من خطواتها، إلا من سائر أو إثنين ساقهم القدر لوطأة الشوارع في مثل هذه الظروف.

لاحظ وجودها بمجرد أن اقترب من غرفته، فقد جلست على (المصطبة) الصغيرة الرابضة أمام الغرفة جلست بلا حراك تتأمل إحدى الأشجار القريبة منها، زادها شرودها حسنًا؛ حتى بدت أشبه بأميرات الحضارة الإغريقية، حتى إنه ود لو كان إغريقيًا قديمًا لينحت لها تمثالاً رخاميًا يُخلد جمالها الساحر.

انتبهت لاقترابه فارتسمت على محياها ابتسامة دافئة. ارتعد قلبه واجتاح سرب من الفراشات معدته

وشعر بقشعريرة لطيفة تسري في روحه، وهي مشاعر لم يشعر بها من قبل.

كيف له أن يشعر بهذه المشاعر العذبة، وهو من لم يسلك دروب الحب قبل أن يسقط أسيرًا لعينيها.

بجوارها على (المصطبة) قبعت صينية صغيرة مغطاة بقطعة قماش نظيفة، ودون أن يكشف سر غطائها، عرف محتوياتها؛ فول وطعمية، وباذنجان لم يستطع الجلوس جوارها ليس بسبب الصينية بالطبع، بل خشية أن يراهما أحدهم، فيظن فيها ما أستاذ، لكن عندنا في البلد لا تأكل الفتيات في الشارع عيب!".

جاء دوره لينظر لها بدهشة بدوره، متسائلًا: "وما العيب في فتاة تأكل في الشارع؟."

لم تجد ردا على سؤاله فقالت بخجل: "عيب! عيب!".

وضع الرغيفين في الصينية، وأعاد تغطيتها بالقماشة قائلًا: "حسنًا، سأكل لاحقًا."

سألته بدهشة: "ولماذا لا تأكل الآن؟."

أجابها مبتسمًا: "عندنا في البلد لا يأكل الشبان في الشارع، عيب يا نسيمة عيب."

قهقهت ضاحكة في خجل على مزحته، وهو ما جعل قلبه يتحزم بأحد أوردته، ويتراقص في سعادة! سألته باهتمام أنثوي: أين كنت يا أستاذ؟ ألم ينته الدرس بعد المغرب؟."

سعد لاهتمامها، فهو لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أجابها: "ذهبت للسير على ضفاف الترعة، لأرتب أفكاري، بعد أن توصلت لقرار ما، وشرعت بتنفيذه."

سألته بفضول: "أي قرار؟".

ثم انتبهت لفضولها الذي غلبها، فقالت بقليل من الحرج: "إذا كُنتُ مُستعدًا لإخباري به طبعًا."

ابتسم وقال: "قررت أن أبدأ تحقيقي الخاص في الجرائم المروعة التي تحدث في الجزيرة."

ظهرت أمارات القلق على قسمات وجهها الملائكي، وهي تسأله بتوجس: "أتظنها فكرة سديدة؟". شعر بالحماس يجري في عروقه، فأجابها فورا: "بكل تأكيد، كما أنني ... تردد في إخبارها بخوفه من أن

يُصبح مشتبها به فتابع جملته قائلا: "أشعر ببعض الملل، ولا أعتقد أن هذه المغامرة ستضر أحدًا."

فكرت قليلا، قبل أن تقول بقلق: "لكن من الممكن أن تضرك أنت!".

قال مطمئنًا قلقها وروعها: "أعدك أن أتوخى الحذر".

فكرت قليلًا، قبل أن تهز رأسها برفض وتقول: "لا، ما زلت غير مقتنعة."

هز كتفيه وسألها: "هل لديك أي اقتراح آخر؟".

قالت له بشيء من الانفعال : "ألا ترى أنه من الأفضل ترك هذا الأمر برمته؟". ثم احمر وجهها خجلا وهي تقول : "أنا آسفة، أنا فقط."..

قاطعها مهدئًا من حدّة الموقف: "لا بأس، أتفهم انزعاجك". ثم نظر لها نظرة ذات مغزى، قبل أن يضيف: "وأحترمه بشدة."

ابتسمت لتعليقه الأخير، وسألته: "هل لي أن أسألك عن سبب اصرارك على إثبات أنه قاتل من لحم ودم، لا أسطورة؟ خصوصًا وأنك ستغادر الجزيرة قريبًا، وستترك هذه المشاكل خلفك."

صمت قليلًا، وهو يتأمل قطةً ضالة تسير أمامهم وهي تطالعهما بفضول، قبل أن يقول: "لأن طريقة تفكير الأطفال تجنح لتصديق الخرافات، وهؤلاء صمت قبل أن يسألها: "الأطفال هم عماد المستقبل "هل تتخيلين أن...". كاد أن يُخبرها باسم الصبي، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة ليقول: "أن أحدهم قال لي في البداية أن النداهة قتلت شابا في غيط محروس الضلالي، ثم أخبرني أنه يخشى ظهور حسن البحري ثم أخبرني الصبي أن."...

صمت وهو يفكر في الأمر برمته، فسألته في فضول: "بم أخبرك أيضًا؟."

أجابها بشرود: "أخبرني أنه يخشى أن يظهر أبو منشة بدوره."

سألته في غير فهم: "وما المشكلة في ذلك؟."

أجابها ببطء ودماغه يغرق في بحور أفكاره المتلاطمة: "المشكلة أنه خاف من ظهور حسن البحري فظهر حسن البحري، ثم خشي أبو منشة، وبالفعل كان هو من ارتكب الجريمة التالية."

شهقت وهي تسأله: يا إلهي! يبدو وكأنه يتنبأ بالمستقبل"

أجابها وقد انتشلته شهقتها من شروده: "أو أنه يعرف!".

سألته بفضول: "ماذا يعرف ؟ ماذا تقصد؟."

أجابها بجدية: يعرف ما سيحدث، قبل.. قبل أن يحدث!".

قالت: "هذا ما قصدته بقولي، أنه يعرف ما سيحدث قبل أن يحدث!".

نظر لها وقال بقلق: "لم يكن هذا ما قصدته، فهناك حالة أخرى يمكن للمرء أن يعرف فيها ذلك بدوره."

سألته بدهشة: "أي حالة تقصد؟". نظر في عينيها وقال بذكاء: "أن يكون قد اطلع على سيناريو الأحداث قبل أن تحدث، أي أن.. الأمر مخطط."

سألته: "وهذا يعني أنه يعرف هوية القاتل؟."

هز رأسه وقال: "بالضبط."

شهقت وقالت بصوت متهدج: "يا إلهي، يجب أن تخبر العمدة!".

قال: "لا، يجب ألا نتسرع، علينا التأكد أولا من صحة هذه النظرية، فما زالت هناك نسبة ولو واحد بالمئة أن ما يحدث ليس سوى محض مصادفة ليس إلا."

سألته: "وكيف ستتأكد من الأمر؟."

قال وهو يعود للشرود مرة أخرى: "سأجد طريقة ما" ثم نظر إليها فجأة قائلًا: "لكن لا تخبري أحدًا بأي شيء حتى أجد طريقة للتأكد من صحة نظريتي."

هزت رأسها وهي تقول: "أعدك ألا أخبر أحدًا."

قال مبتسمًا : "والآن، عودي للمنزل، فقد تأخر الوقت."

نظرت للعتمة التي شابت السماء قبل أن تحييه وتنصرف، مع وعد بصينية أخرى في الصباح، ورحلت.

تابعها بعينيه حتى غابت عن مدى بصره، قبل أن يهمس لنفسه: "ماذا لو عرفت أن هذا الصبي هو شقيقك .. هو حسان الصغير؟"

(14)

كانت ليلة عاصفة، تمايلت فيها أغصان الأشجار على نغمات الريح العاتية، وهو ما حَرَم مروان من النوم العميق، فما كان منه إلا أن يستفيق كل حين، على حفيف أوراق الشجرة القريبة وهي تثرثر مع الرياح، أو تتخبط في جدران غرفته بعنف، ناهيك طبعا عن خوفه الكامن في أعماقه، حتى لو صمت عن البوح به لأي شخص، بالإضافة لأثر تناول الفول والطعمية قبل النوم، وهو درس لم يتعلمه من الليالي السابقة أبدًا.

طاردته الكوابيس منذ أن حظ في هذه الجزيرة، لكن بنظرة سريعة لما يحدث من حوله، فإن هجوم الكوابيس أخف وطأة من مطاردة الأساطير له ومحاولة قتله، وهكذا ارتضى بقدره وحمد الله عليه. تقلب في فراشه، يُحاول النوم جاهدًا، لكن الأخير أبي زيارة عينيه سوى لدقائق، يستيقظ بعدها مذعورًا، ليتفحص أرجاء الغرفة، قبل أن يهدأ روعه وتتباطأ دقات قلبه، ويعود لمحاولاته اليائسة لاصطياد للنوم.

لكن عندما استيقظ هذه المرة، في قلب غرفته المظلمة، وشعر بقلبه يخفق بجنون وعيناه

تتراقصان فزعا، عرف .. عرف أنه لم يستيقظ ككل مرة، عبثا، فقد تجلى السبب جليًا أمام عينيه.

تأمل ذلك الكيان المظلم الذي حاول التخفي في ركن غرفته، وسط الظلام، وبين العتمة، وللحظة..
تلاقت أعينهما، وعرف مروان أن الكيان يراه، وأدرك الكيان أن مروان قد وجده.

ولم يعد هناك أي داع للتخفي، أو محاولات التماهي مع الظلام، وهكذا.. انفصل الكيان عن جدران الغرفة وتقدم نحو مروان الذي يُطالعه بعينين تعكسان خوفًا عميقًا.

وبخطوات بطيئة تقدم ذلك الشيء، حتى وصل إلى منتصف الغرفة، سقطت عليه أشعة القمر المتسللة من خلف النافذة، لتكشف عن شكله، وثعري ستر هيئته التي حاول إخفاءها بين أحضان الظلام.

جسده مترهل مغطى بجلد شاحِب يبرز من تحت شعره الكثيف الذي غطى جسده باستثناء بعض المناطق التي تعرّت أمام أنظار مروان، بدا وكأن جلده يعود لجسد أكبر وأضخم من جسده، كما شابت المناطق العارية من جلده تقرحات دموية، تزحف

على أطرافها الديدان، وتنز صديدًا مُقزّزًا، طالت يداه حتى كادتا تمسان الأرض من تحته بينما اصفرت أظافره وتكسرت كنصل منشار حاد انعكست ركبتاه للخلف على عكس الطبيعة البشرية، بينما شقت عيناه بالطول واتسع فمه في ابتسامة مخيفة امتدت من أذنه اليمنى وحتى اليسرى.

شعر بهواء الغرفة البارد نفسه وكأنه يرتجف من حوله، وكأن الغرفة بكامل محتوياتها تتزلزل خوفًا من وجوده بدأ ذلك الكيان يتقدم نحو مروان المستلقي على فراشه، يطالعه برعب، وقد بلغ به الهلع مبلغه حتى كاد يفقد قدرته على التنفس، اتسعت ابتسامة ذلك الكيان وكأنها تكشف عن سر دفين.

وقف أمام فراش مروان ينظر في عينيه وكأنه يتحداه، حاول مروان أن يقرأ آية من القرآن، أو حتى أن يستعيذ بالله، لكنه وجد لسانه ثقيلًا لا يقوى على الحركة، وكأن ذاكرته قد تحولت إلى صفحة بيضاء خالية.

ازداد رعبه، ونما فزعه حتى بدأت قشعريرة تسري في جسده وبدأ يشعر بأسراب من النمل تجتاح جسده،

حاول الحركة .. لكنه لم يستطع، شلت أطرافه وفقد قدرته حتى على الصراخ، قبل أن يشعر بقطيع من الأفيال يجثم على صدره، تسلّل الخوف إلى ثنايا نفسه، وتجمدت أفكاره مثلما توقف دماغه، حاول التنفس لكن الثقل كان أكبر من قدرته على الاحتمال. اجتاح الرعب قلبه، حاول التحرك، أو الصراخ، أو المقاومة، لكنه فشل في كل ذلك فشلا ذريعا. اقترب منه ذلك الكيان، انحنى نحوه حتى ألصق وجهه به شم مروان رائحة أنفاسه الكريهة، سقطت دودة من فتحة أنفه، وزحفت على وجه مروان، مخلفة سائلًا لزجًا من خلفها.

جاهد طويلًا حتى تمكن من إبعاد وجهه قليلًا، نظر للجهة المقابلة، لكن شعوره بالدودة، وبرائحة الأنفاس الكريهة، ودفئها تسللوا ليغلبوا عليه، همس له الكيان: "لن تخرج من هنا."

ثم أخرج لسانًا خشنًا ولعق وجنته ببطء شديد، شعر مروان بلعابه يحرق جلده غزا الألم حصونه، وفكك من مقاومته، فشل في السيطرة على نفسه، وهذه المرة .. حلت عقدة لسانه.

وبدأ يصرخ بعنف وهو يشعر باللعاب يكوي بشرته. صرخ حتى خارت قواه ووجد نفسه يسقط مغشيًا عليه مستسلمًا للخوف والفزع، ونظر نظرة أخيرة لابتسامة الكيان التي بدأت تتسع بعد أن أدرك أن مروان لم يعد موجودًا في الغرفة معه، وإنما سقط أسيرًا للظلام.

(15)

دخل إلى (الفسحة) بعد الأطفال كعادته سار بينهم دون أن يُحييهم كعادته، لم يكن رائق البال بما يكفي لينتبه لهذا الأمر، فقد غرق في بحر همومه اللجي لاحظ الأطفال ذلك؛ فقرروا - في اتفاق ضمني غير معلن - أن يلتزموا اليوم أقصى درجات ضبط النفس لأنهم يعرفون جيدا كيف سيتصرف لو ضايقوه اليوم بشقاوتهم.

جلس في مقعده، مسح أنفه بكمه، وهو يفرك عينيه المنتفختين من قلة النوم، قبل أن يقول بصوت يكسوه الإعياء: "ماذا ستراجع اليوم؟."

هش فريد ذبابة عن جرح في ذراعه وأجابه ببراءة: "مادة العلوم."

تأوه مروان، لم يكن يرغب في مراجعة مادة العلوم اليوم، بل رغب في مادة خفيفة، لا تحتاج لكثير من التركيز، أو لقدر كبير من الانتباه، لكن هذا الله؛ وهذه حكمته.

بحث بين كتبه حتى وجد كتاب العلوم، فتحه وقال بإرهاق افتحوه على الصفحة ثلاثة عشر، ستراجع الجهاز الهضمي". فتح الأطفال كتبهم، كاد يبدأ شرحه، قبل أن يقاطعه صوت فريد وهو يهش ذبابة أخرى عن وجهه: "هششششش."

أمسكت هنادي بفرع شجرة صغير ونحيل، وأعطته لفريد ليستخدمه كشيء يهش به الحشرات عن جرحه الصغير، بدلا من إزعاجهم كل بضع دقائق.

أخذ فريد الفرع، واستخدمه في هدوء، بدأ مروان شرحه باختصار مقتضب، لكنه افتقر للتركيز أثناء الشرح، وهكذا وقع في عدة أخطاء، صححها له الأطفال، فادعى بأن قدمه قد زلت في هذا الخطأ عمدًا، كي يختبرهم.

بعد عدة دقائق، زادت أخطائه حتى تيقن من أنه لن يستطيع إتمام الدرس بنجاح اليوم، ولن يقوم بما هو

أكثر من تشويه المعلومات التي شرحها من قبل
وهكذا اكتفى بهذا القدر، وقرّر أن يجري لهم اختبارًا
صغيرا، وبهذه الطريقة.. سيتاح له أن ينال قسطا من
الراحة، كما سيلتزم الأطفال الصمت أثناء فترة
الاختبار، فيستغلها لأخذ هدنة من هدير الصداع
الذي يجتاح دماغه.

وبالفعل أغلق كتابه، وطلب من الأطفال إخراج
دفاترهم، وأملاهم عدة أسئلة، وطلب منهم حلّها في
صمت، وحتى لو انتهى أحدهم من الإجابة على
أسئلته، لا يتحرك من مكانه حتى تنتهي مدة
الاختبار.

أغلق عينيه، وأبحر في خضم أفكاره الغامرة، يُفكر في
كل شيء، في كل ما يحدث بالجزيرة، وكل ما يحدث
في غرفته، وسلسلة الأحداث المخيفة التي تموج في
أرجاء الجزيرة، والخوف الذي عشش في صدور
أهلها.

فتح عينيه بعد برهة، ونظر للأطفال المنهمكين في
حل الأسئلة.

هنادي الصغيرة.. الفتاة الوحيدة فيما بينهم، والزهرة الرقيقة التي تحنو روحها على كل من حولها.

وحشان، فصيح اللسان، والذي يفوق ذكاؤه سنه.

فريد الصغير الذي يُحِب لفت الانتباه، والذي يستهويه لعب دور مهرج المجموعة.

وعمر، المحارب في صمت ضد قلة استيعابه وخجله الاجتماعي، في محاولة يائسة للحاق بركب الدراسة مع أصدقائه.

ابتسم مروان ابتسامة خفيفة لا يعلم كيف كان ليحتمل الجزيرة دون وجودهم همس لنفسه: حمدًا الله على وجودكم.

رفع عمر يده، فقال له مروان بصوت هادئ "ما الأمر؟."

تلعثم الصبي قليلًا، حين شعر بأنظار الجميع تتعلق به في فضول: "أريد أن أتأكد من أمر ما في الاختبار." أشار له مروان بالاقتراب، فتحرك نحوه الصبي وهو يعرج قليلاً، لكنه لم يكن يعرج من قبل، وهذا غريب استفسر الصبي عن نقطة ما في الاختبار، فساعده

مروان على فهم تلك الجزئية، دون أن يخبره بالحل الصحيح، تاركًا له المساحة ليفكر في الأمر قليلًا، شكره الصغير وعاد - عارجًا - إلى مكانه بين أصدقائه.

سأله مروان: هل أنت بخير يا عمر؟ لماذا تعرج هكذا؟."

رفع الصغير طرف جلبابه ليكشف عن حرق في قدمه اليسرى، وقال بصوت يشوبه ألم طفولي: "لقد سقط الماء المغلي على قدمي أمس."

سأله مروان باهتمام: "هل زرت الطبيب؟."

ابتلع الصغير ريقه وقال بتوتر: "أجل، قال إنها حروق من الدرجة الأولى، لكنني لم أفهم معنى ذلك."

قال حسان مشاكسًا، متسلحًا بطيش الصبا: "يعني ذلك أنك قد أصبحت (أبو رجل مسلوخة)."

زجره مروان بنظرة صارمة، فهمس قائلا: "آسف."

ثم نظر إلى عُمر، مُبتسمًا بحنو وهو يقول: "يعني أنه حرق سطحي خفيف، وأنه لم يُصب سوى الطبقة العليا من الجلد، لا تقلق". ثم سأله: "هل وصف لك أي أدوية؟."

قال الصبي بفخر طفولي: "أجل، لكن أمي قالت إن زيت السمسم أفضل من أي دواء للحروق."

هز مروان كتفيه، ولم ينبس ببنت شفة، لا داعي لهز صورة الأم في عيني صغيرها، خصوصًا وأنها محقة بعض الشيء في أن زيت السمسم علاج للحروق، لكنه وبكل تأكيد - ليس أفضل من الأدوية.

عاد الأطفال لمعترك الأسئلة في صمت، وانهمكوا في حل أسئلة الاختبارات سمع فريد يقول بصوت خفيض: "هششششش"

قال فريد بصوتٍ خافِت: "حاضِر يا أستاذ".

تأمل الظلام الدامس خلف جفنيه، كان هذا مُهدئًا للصداع بعض الشيء، وهو ما سمح لرأسه بنيل بعض السكينة، وهكذا استطاع تنظيم فوضى الأفكار التي تجتاح دماغه قليلًا.

دغدغت فكرة ظريفة دماغه فابتسم، حيث إن منظر فريد وهو يهش الذباب بفرعه، يُشبه وصفهم لـ (أبو منشة بمنشته الشهيرة، قال لنفسه: تخيل أن هذا الصبي الصغير هو أبو منشة الشهير، يعيش بين أهل الجزيرة كطفل بريء!

ثم انعطفت أفكاره للتفكير فيما قاله فريد منذ قليل، وهو يصف قدم عمر المحروقة .. (أبو رجل مسلوخة)

يبدو أن هؤلاء الأطفال ينسجون ذواتهم في نسيج الأساطير الغابرة المخيفة، فلدينا هنا فريد (أبو منشة) وغمر (أبو رجل مسلوخة). لكن لا يزال لدينا صغيران لم يكتشف هويتهم الأسطورية بعد.

هنادي.. هنادي الصغيرة.. الرقيقة!

هنادي التي لو فكك حروف اسمها، وأعاد ترتيبها بطريقة مغايرة، لوجد أن اسمها قريب للغاية من أسطورة شهيرة أخرى هنادي.. نداهة!

فقط حرف واحد يفصل فيما بينهما!

يظل لدينا طفل واحد.. حسان شقيق نسيمة الفاتنة! وهنا أضاءت صاعقة الفهم مصابيح دماغه، حسان اسمه الثنائي هو حسان حرب!

وحشان تشبه حسن وحرب تشبه بحري!

قال دون أن يفتح عينيه: "فريد.. استخدم الفرع، لا أريد أن أسمع أي صوت."

إذن فحشان حرب هو حسن البحري!

إذن فلديه في درسه أربعة صغار يتجسدون كأربعة أساطير مخيفة! النداهة، وحسن البحري، وأبو منشة، وأبو رجل مسلوخة!

إنها نظرية مجنونة للغاية، وجامحة الخيال بشدة لكنها مقارنة بالجنون الذي يعصف بدروب القرية، تبدو منطقية للغاية!

وبين هؤلاء الأربعة.. ارتكبت ثلاثة أساطير جرائم قتل مروعة، وواحد لم يفعل شيئًا! أو.. لم يفعل شيئًا بعد!

لكنه، وفي قرارة نفسه.. عرف جيدًا هوية الأسطورة التي سترتكب الجريمة التالية!

(16)

صحيح أنه كلما نظر إليها، رقص قلبه طربًا وسرورًا إلا أنه عندما رفع قطعة القماش عن الصينية، ووجد طبقا من الأرز، وبعض اللوبيا التي تتهادى في بحر من صلصة الطماطم الحمراء، ونصف دجاجة محمرة تفوح منها رائحة السمن البلدي، تراقص قلبه فرحًا أكثر من ذي قبل.

كاد أن يقف ليهتف في منتصف الجزيرة: لا مزيد من الفول والطعمية، ولا مزيد من الباذنجان!

لكنه خشي أن ينعته أهلها بالجنون، وهكذا اكتفى بتنهيدة طويلة، وابتسامة واسعة، وهو يقول لها بامتنان حقيقي: "شكرًا جدًا."

تورد وجهها خجلا وهي تُجيبه: "لا شكر على واجب يا أستاذ هذا من بعض خيرك على حسان."

اكفهر وجهه قليلا حين ذكرت اسم شقيقها، غطى الصينية مرة أخرى، واعتدل في مجلسه على (المصطبة) ليواجهها، سألها باهتمام حقيقي:

"أخبريني يا نسيمة.. هل يُحِب حسان البحر؟ أقصد هل يُظهر اهتمامًا مفرطا أو غير اعتيادي به؟."

ظهرت عليها أمارات القلق من سؤاله المفاجئ فأجابته بتردد: "ربما، لا أعرف لست متأكدة."

ثلاث إجابات متضاربة تكشف عن حيرتها الشديدة أو بأنها قد وقعت في قبضة مفاجأة لم تتوقعها، لكن... هل تعرف شيئًا؟

ابتلع ريقه قبل أن يقول: "هل يمكنني أن أبوح لك بأمر دون أن تغضبي لأن حسان شقيقك ؟."

نظرت له في قلق قبل أن تقول: "بالتأكيد، يمكنك أن تثق بي". ثم تهدج صوتها قليلًا وهي تسأله: "هل حسان بخير؟."

طمأنها قائلًا: "حسان" بخير لا تقلقي". تنفست الصعداء، فتابع حديثه: "المشكلة أنني توصلت لنظرية وإن كانت جامحة بعض الشيء، لكن لو كانت نظريتي صحيحة، فحسان وأصدقاؤه بخير، لكننا أيضًا سنواجه خطرًا جامحًا."

سألته بقلق: "ما الأمر يا أستاذ؟ لقد أثرت قلقي حقًا!".

تردد قليلًا، خصوصًا وأن موضوع حديثه يتعلق بشقيقها، وهكذا غرق في أعماق بحور أفكاره بحثًا عن طريقة يبدأ بها حديثه دون أن يتسبب في صفعة على وجهه، أو سبة تنال من شرف والدته، أو كلاهما معًا! تذكر شيئا، فقال لها: هل تعرفين أسطورة ضرع البقرة الجاف؟ تلك الذي حدثت في تلك الجزيرة من سنوات؟."

نظرت له بدهشة وهي تقول: "بلى، أعرفها جيدا لكن.. كيف لك أن تعرفها من الذي أخبرك بتفاصيل هذه الأسطورة؟."

أجابها بقليل من التردد: "قص علي عم سليم تلك الأسطورة بشكل مختصر، لكنني رحمه الله أميل الآن لتصديقها، لكن هل يمكنك أن تخبريني بها بالتفصيل الممل."

سألته: "وما علاقة ذلك بنظريتك؟ وحب حسان للبحر؟."

أجابها في غموض: ستعرفين كل شيء في الوقت المناسب، والآن.. أرجوك أن تخبريني بكل ما تعرفينه عنها."

ودون مزيد من التردد، شرعت في سرد كل ما تعرفه عن تلك الأسطورة القديمة...

***

في زمن مضى اجتاحت الجزيرة سنين عجاف ومحن عظام، استشرى مرض لا يُرجى برؤه في ربوع الجزيرة استهدف ذلك الوباء الأنعام والمواشي وكالطاعون.. الذي لا يُقضى ولا يذر، بدأ يقضى على كل حياة تقف

في طريقه. وهكذا سقطت المواشي صريعة واحدة تلو الأخرى حتى خلت الجزيرة من كل ذي حافر وظلف. وعجز الأطباء عن إيجاد تفسير أو علاج لهذا البلاء، فمال أهل الجزيرة، كعادتهم في مواجهة كل أمر مبهم، للاعتقاد

بأنها ظاهرة خارقة.

سرعان ما بادر أهل الجزيرة إلى طلب العون من الشيخ مبروك، وهو اسم على مسمى، شيخ يُحبه الله ويحبه الناس، في البداية، أعرض مبروك عن التدخل

في الأمر، ناصحًا إياهم بترك الأمر لأهل العلم والطب. لكنهم ألحوا عليه، حتى اضطر للتدخل، دون أن يُدرك أحدهم أنها طريقته الذكية ليزيد من هيبته في قلوبهم.

وهكذا تقدم للعب دور المنقذ، وأمرهم أن يشتروا بقرة من بائع محدد، ووصفها لهم بدقة. ذهبوا لشرائها فورا، دون أن يسأله أحدهم عن سبب اختيارها، طلب منهم أن يتركوها ترعى في أرض الجزيرة، حتى ثدر

اللبن، دون أن يمسها أحد.

لم يصبها المرض القاتل، لكنها أيضًا لم تدر أي لبن فقد كان ضرعها جافًا للغاية.

بدأ الشك يتسلل إلى قلوب أهل الجزيرة، لكن مبروك أصر على أن الشفاء تأخر لأن بينهم من لا يُصدق فيما يفعله، بل ويشكك في بركاته، وفي أوامر الأسياد.

وفي حقيقة الأمر.. لم يكن هناك من يعارضه سوى الطبيب الذي يرى أن ما يفعله ليس سوى ضرب من الدجل، مدعيًا بأن مبروك هو من سمم كل ماشية البلدة، وأنه فعل ذلك لغاية لم يُدركها بعد. لكن أهل الجزيرة لم يصغوا له، ولم يمنحوه حتى فرصة لتفسير فكرته بل طردوه شر طرده، وعادوا لمبروك يُخبروه أنهم قد تخلصوا من الجاحد الذي يقف في وجه بركات الأسياد.

طلب منهم مبروك أن يأتوه بالبقرة، وأن يتركوها معه لليلة، وأن يعودوا في الصباح. وهكذا فعلوا، وعادوا صباحًا ليجدوا ضروعها قد بدأت تمتلئ باللبن، أخبرهم مبروك أنه قد عقد عهدًا مع الأسياد، يقضي بإحضارهم لقدر من الذهب في بداية كل شهر، وإلا تركوا المرض يتفشى بين الماشية مرة أخرى.

ومن سعادتهم بانقضاء محنتهم، وزوال الوباء الذي قضى على ماشيتهم، صمموا على إرضاع أصغر طفل من أطفال كل عائلة من لبن تلك البقرة، كنوع من أنواع التبرك، وإرضاء للأسياد.

بالطبع بلغ الطبيب عن مبروك الذي قبضت عليه الشرطة واعترف بأنه هو من سمم الماشية، وأنه اتفق مع قريبه على أن يبيعهم بقرة مريضة بأضعاف أضعاف ثمنها، على أن يتقاسما المبلغ فيما بينهما، ثم عالج تلك البقرة بالمصل الذي جاءه به قريبه من طبيب يعرفه، على أن يتقاسما أيضًا الذهب في بداية كل شهر.

لكن أهل الجزيرة لم يُصدقوا تلك الاعترافات، وقالوا إنها قد جاءت تحت التهديد والتعذيب، رغم أن هذا لم يحدث قط، وطاردوا الطبيب، بل وكادوا يفتكون به لولا أن هرب من بين براثنهم في اللحظة الأخيرة!

***

انتهت نسيمة من قص كل ما تعلمه عن الأسطورة مستعرضة مختلف وجهات النظر، لكنها أخبرته أنها تنتمي للفريق المقتنع بأن مبروك كان صادقا في

دعواه، وأنه اعترف تحت وطأة التعذيب، كما أخبرته أيضًا أن أهل البلدة اشتروا المزيد من الماشية بعد أن اطمأنوا لانجلاء الوباء القاتل.

سألها باهتمام: هل كان حسان من بين هؤلاء الأطفال الذين رضعوا من تلك البقرة؟."

أجابته بقليل من الخجل: "أجل."

سألها وهو ينسج خيوط نظريته: "ماذا عن هنادي؟ وعمر؟ وفريد؟."

أجابته بالموافقة، قبل أن تستفسر بفضول: "أجل، وغيرهم من أطفال البلدة أيضًا، لكن لماذا تسأل؟."

تنهد، محاولاً انتقاء الكلمات التي يمكن أن تشرح فكرته، دون أن يتسبب في أي نوع من المشاكل وبينما هو غارق في أفكاره.. لمست كتفه بلين ورفق وقالت: "اطمين، أنا نسيمة.. يمكنك أن تبوح بما يجول في خاطرك دون خوف اتسعت ابتسامتها المطمئنة وهي تضيف: "مهما كان."

أخذ نفسًا عميقًا، قبل أن ينظر في عينيها ويقول بصوت جاد: أعتقد أن الأطفال الأربعة يتحولون إلى

أساطير قاتلة ليلًا، وأنهم مرتكبو تلك الجرائم المروعة!".

(17)

أخذ نفسًا عميقًا، وقال و نيران الحماس تتأجج بداخله: "أول جريمة قتل وقعت كانت جريمة قتل النداهة لشاب في غيط محروس الضلالي، صحيح؟".

هزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة، فاسترسل في حديثه قائلًا: "تخيلي معي المشهد التالي، فتاة صغيرة...

***

تسير بين سيقان الذرة، تتقافز في مرح، وضفائرها الصغيرة تتمايل خلفها، غابت الشمس، لكن فرحتها لم تغب تقافزت في الحقل بسعادة غير طبيعية

ابتسامتها البريئة تملأ وجهها، وقلبها يدق في فرحة.

لكنها لم تكن تعي أن هناك ذئبا بشريا يتربص بها، لم تدر أن عينيه الجائعتين تلتهمان جسدها الصغير، وأن لعابه يسيل وهو يُطالعها من بين سيقان الذرة.

أدركت وجوده عندما اهتزت سيقان الذرة من خلفها أثناء تحركه خلفها، لكن الخوف لم يغز روحها، بل اتسعت ابتسامتها، وواصلت تقدمها بين السيقان.

تبعها الوغد دون أن يُدرك أنها تقوده إلى متاهة لن يخرج منها أبدًا، تبعها وهو يُراقبها من بين الأوراق الخضراء، وقلبه يخفق بعنف وشهوته تتأجج بداخله.

رآها وهي تتوقف في منتصف الحقل، رأى عظامها تستطيل، ولحمها يتمزق فستانها الصغير يتمزق وتنفك خيوطه ضفائرها الصغيرة تتحول إلى شعر أشعث متمرد وعيناها الصغيرتان تمتلئان بشر لم يشهده من قبل.

تحول جلدها إلى ثوب أبيض مُمزّق، وظهر بيدها فانوس صغير يتوهج بنيران خضراء مفزعة، ثم استدارت ببطء ونظرت إليه مباشرة.

وقبل أن يتحرك من مكانه قيد أنملة، أسره صوتها الساحر الفنان وهي تناديه: "حامـد!".

ووجد نفسه يتقدّم مسلوب الإرادة، غير قادر على المقاومة، مدركا أن الصغيرة التي تبعها وهو يضمر لها

شرًّا، قد تحوّلت إلى نداهة ضارية أمام عينيه، وها هي الآن على وشك الفتك به!

***

اتسعت عيناها في هلع وهي تسأله بنبرة مليئة بالقلق: "هل تعني أن حامد كان يضمر شرًّا لهنادي؟."

هز رأسه نافيًا وقال: "ليس بالضرورة، لكنني استخدمت هذه القصة لأشرح لك كيف يمكن لهنادي أن تتحول إلى نداهة قاتلة، والآن.. بدلي حروف اسمها، وستجدين نفسك أمام كلمة (نداهة)!".

هزت رأسها في عدم تصديق، فتابع حديثه قائلًا: "هنادي هي النداهة، أما فريد.. فهو (أبو منشة) الشهير، تخيلي معي صبي صغير".

تسلل خفية إلى المقابر في جنح الظلام، إذ نعته رفاقه بالجبن، وتحدوه أن يدخل المقابر ليلًا من بابها الأمامي، وأن يعبرها كلها قبل أن يخرج من بابها الخلفي، ليثبت لهم أنه ليس رعديدًا يخاف كل شيء.

وبحماقة الصبا، قَبلَ فريد التحدي، وانتظر هو

وأصدقاؤه حتى اكتنفت الظلمة المكان، ابتلع ريقه بصعوبة، وتسلّل إلى المقابر، حريصًا على ألا يراه أحد الكبار، فيمنعه دون ذلك.

داس تراب المقابر، في البداية ارتجف جسده بشدة واجتاحه الخوف، قبل أن يتماسك ويستكمل دربه نحو الباب الخلفي، وقد تحلى ببعض الشجاعة، أسرع الخطى قليلا، كاد يصل للباب الخلفي، قبل أن يسترعى شيء ما انتباهه.

عاد خطوتين للخلف، وبين قبرين رأى من يركع ليدفن شيئا ما في قبر مفتوح، أهو عمل؟ قال والده من قبل أن السحرة الأشرار يدفنون الأعمال في القبور المفتوحة، ويبدو أن هذا أحدهم!

لمحه الساحر، ونظر له شزرًا، نَهَضَ وقال له بعينين تحملان رعبا لم ير مثله من قبل: "إذا نطقت بحرف أيها الوغد الصغير، سأذبحك هنا."

وبدلا من أن يخاف فريد اتسعت ابتسامته، وبدأ يتحول أمام عيني الساحر المذعور، وهو يراقب ظل الصغير يتمدد ويزداد حجمه ليُعادل حجم رجل بالغ طويل القامة وعريض المنكبين.

وعندما رَفَعَ عينيه، وَجَد أبو منشة يقف أمامه حيث وقف الصبي لتوه.

ابتسم له (أبو منشة) ابتسامة ساخرة، قبل أن يضربه ضربة واحدة بمنشة، سقط الرجل صريعًا تحت قدميه، وعلى وجهه أعتى أمارات الرعب.

***

سألته بدهشة: "هل كان بيومي ساحرًا ويعمل في الأعمال؟."

تنهد بحسرة، قبل أن يقول: "حمدا لله أنك جميلة يا نسيمة."

سألته بغير فهم: "ماذا تقصد؟."

كاد يلطم على خديه وهو يقول بيأس: "لا شيء، لا أقصد أي شيء، ولا .. لم يكن بيومي ساحرًا، بل كنت أضرب مثالاً لتوضيح الأمور لا أكثر ولا أقل، ومؤخرًا بدأ فريد يستخدم ما يُشبه المنشة لنش الذباب عن وجهه، وكأنه يجهر بسره دون خوف."

فكرت في الأمر للحظة، قبل أن تسأله: "ماذا عن حسان؟ شقيقي؟."

ابتلع ريقه بصعوبة، ثم قال: "تخيلي معي طفلًا يعشق البحر..

***

يعشق البحر بكل جوارحه، ويميل لقضاء أوقاته على شاطئه، يُحب خلع ملابسه والغوص في أعماقه في أيام الصيف الحارة، ويُحب السباحة بين أمواجه في أيام الشتاء الباردة، وهكذا يميل لقضاء أوقاته أمام البحر.

في أحد الأيام، أثناء سباحته في مياه البحيرة، غاص تحت الماء كعادته، وارتفع فوقه، قبل أن يلاحظ شيئًا ما يجذب انتباهه.

وهكذا غاص تحت الماء، وتتبع الشيء الذي لفت انتباهه سرًا، دون أن يُصدر أي صوت، تتبع القارب، وهو يسترق النظر، ويُحدّد الاتجاه الذي سيتجه إليه تحت الماء.

حتى وصل القارب إلى مبتغاه، منطقة هادئة تمامًا، وقف القارب الصغير بلا حراك في الظلام، حتى الفانوس الصغير المعلق إليه، والذي عادة ما يتركه قائده مفتوحًا، أطفأه هذه المرة، وهو شيء غريب

بالنسبة للمراكبي العجوز.. الذي لم يكن سوى عم سليم.

اقترب قارب آخر عن بعد رفع حسان رأسه فوق الماء، مراقبًا ما يحدث للحظات، قبل أن ينتبه لعملية تبادل الممنوعات التي تجري هناء أعطاهم عم سليم صندوقا مغلقًا، وتسلم منهم جوالًا يبدو وكأن به مبلغا لا بأس به من النقود.

انتهت عملية التسليم، وأدار عم سليم قاربه للعودة لكنه لمح الصغير في اللحظة الأخيرة، قبل أن يهبط تحت الماء، أمسك مجدافه الخشبي، وبدأ يطعن به صفحة الماء، بلا هوادة، مرارًا وتكرارًا.

حتى أصابت ضربة طائشة رأس حشان، الذي شعر بالألم والغضب يتحدان سويًا ليُخرجاه عن طوره وهكذا تحول إلى حسن البحري تحت الماء.

قبل أن يتسلق القارب، ويقبض على عنق العجوز حتى فارق الأخير الحياة بين يديه!

***

وقبل أن تنطق بكلمة قال: "ولا، لم يكن عم سليم مهرب أو خارج عن القانون، وإنما هو مثال آخر."

ظهرت عليها أمارات الفهم للحظة، قبل أن تقول: "لكن حسان ليس أسطورة، ولا يتحول لأي شيء ليلًا،

سوى لوغد مشاكس فقط."

قال: "هناك طريقة واحدة فقط لإثبات نظريتي."

سألته بفضول: "وما هي؟."

أجابها: "أن يرتكب أبو رجل مسلوخة الجريمة التالية."

سألته: "إذن فالأطفال الأربعة هم أساطير ويتحولون ليلا لارتكاب جرائم القتل المروعة التي تحدث في أرجاء الجزيرة؟."

أجابها: "أجل، أعتقد ذلك."

فاجأته برد فعل لم يتوقعه أبدا، انفجرت ضاحكة بقوة حتى دمعت عيناها نهضت من مكانها، دون أن تتمكن من التوقف عن الضحك، وسارت مبتعدة، وكلما نظرت خلفها .. ورأته، سقطت في نوبة أخرى من الضحك الذي لا يتوقف!

(18)

اعتاد الحاج إبراهيم الوحدة، بل وسعى إليها بكل ما أوتي من قوة، وهكذا شغل منصب وظيفة غفير على قطعة أرض فضاء تعود لأحد أثرياء الجزيرة ينام طوال النهار، ويجلس على مقعد خشبي أمام بوابة السور الذي أحاط به صاحب الأرض أرضه، لا يؤنس وحدته سوى سجائره التي تتصاعد منها خيوط الدخان، ودندنته بالأغاني التي يحبها.

وبمجرد أن تشق أشعة الشمس عتمة الليل، يلملم حاجياته، ويرحل مبتعدا نحو منزله، قبل أن تتسنى الفرصة لأحد من أهل الجزيرة أن يُقابله أو يتبادل معه عدة كلمات لطالما كانت الوحدة ملاذه، والابتعاد عن الناس راحته.

وهكذا وجد نفسه يجلس على مقعده الأثير، أمام البوابة المغلقة، يدندن بكلمات أغنية يحبها بصوته السيء، يُغلق أزرار معطفه الصوفي حول جسده ويُحاصر عنقه بكوفية ثقيلة من الصوف، ويُمسك بين أصابعه بسيجارة تحترق في صمت.

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، ورأى طرفها يتوهج في الظلام، ترك الدخان يتجول في صدره قليلًا، قبل أن

ينفثه بقوة في الهواء، عاد للغناء مرة أخرى، ثم توقف وسعل عدة مرات، قبل أن يتمالك نفسه ويعود لاستكمال غنائه.

كانت ليلة باردة، ساد الضباب فيها حتى غطى على كل الموجودات، فلم يغد أحد يرى شيئا سوى غيوم الضباب التي يلف الجزيرة من كل حدب وصوب، لكنه لم يشعر بالخوف، أو حتى بالبرد، فهذا طقس يناسبه وتلك ليلة يُحبها.

يحب تلك الليالي لأن أحدًا لا يلوث وحدته، ولا يقترب منه، يقضيها وحيدًا حتى يأذن له شروق الشمس بالرحيل.

لكن يبدو أن الليلة ستكون مختلفة، لأنه رأى جسدًا نحيلا يقترب من وسط الضباب، يترنح بين الغيوم حتى ليبدو وكأنه ثمل، انتفض جسد الحاج إبراهيم لم يكن ذلك شيئًا معتادًا، وهكذا ألقى بسيجارته أرضًا، ودهسها بكعب حذائه الثقيل ثم مد يدًا مرتعدة ليمسك ببندقيته القديمة، التي لا يعلم حتى إذا كانت ما تزال تعمل.

أشهر بندقيته، وصوبها نحو الجسد النحيل، وقال بصوته الجهوري: "مين هنـاك؟."

توقف الجسد في مكانه، وقال صاحبه بصوت خفيض يكسوه إرهاق بالغ: "عابر سبيل، لا يريد سوى شربة ماء لتروي ظمأي."

شد الحاج إبراهيم أجزاء بندقيته، وقال محذرًا: "لا ماء لدي، ابتعد ولا تقترب وإلا ضربتك بالنار."

رفع صاحب الجسد يديه في استسلام، وقال باستجداء: "لا أريد الموت، لكنني أريد شربة ماء، فالعطش يقتلني."

قال الحاج إبراهيم: "قلت لا ماء لدي، والآن استدر وارحل، وإلا اعتبرتك لها واستبحت دمك."

قال النحيل بخزن: "أنت تحكم علي بالإعدام بهذه الطريقة، أرجوك!".

قال الحاج إبراهيم محذرًا: "قُلت لك لا ماء لدى، ألا تفهم؟ والآن.. ارحل. صمت قليلًا، ووضع إصبعه على الزناد، قبل أن يضيف: "هذا تحذيرك الأخير."

هز النحيل رأسه واستدار سار مترنحًا في قلب الضباب الكثيف، يبتعد شيئًا فشيئًا حتى كاد يختفي تمامًا.

شعر الحاج إبراهيم بنيران الألم تتأجج في قلبه، لم يكن قاسيًا، ولم يعتد على رد سائل، مهما حدث لكن الليل حالك الظلام، والأساطير تقتل الأبرياء، لكن هل يطلب الأشباح الماء؟ هذا شبه مستحيل!

هل يجازف؟ هل ينادي الغريب ويسقيه بعض الماء؟ سيكون هذا خيرًا، وبالتأكيد لن يُجازيه الغريب على خيره بشر صحيح؟

وهكذا استجمع البقية الباقية من شجاعته، ونادى الغريب قائلًا: "أنت."

توقف صاحب الجسد النحيل وسط الضباب، استدار ببطء، فأشار له الحاج إبراهيم بالتقدم، تقدم حتى انقشع الضباب عن ملامحه، وتجلت بوضوح أمام عيني الغفير العجوز.

رجل أسمر نحيل يرتدي ملابس خفيفة، تغطي ملابسه الممزقة جسده الواهن لم يخفض الحاج

إبراهيم سلاحه، بل أشهره بقوة، وقال للغريب: "لن أتردد في تفجير دماغك."

هز النحيل رأسه مستسلمًا، وهو يرفع يديه في إرهاق مرة أخرى، سأله الحاج إبراهيم: "من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟."

نظر له النحيل بلوم وسأله بإرهاق: "ألا يُمكن لهذه الأسئلة أن تنتظر ريثما أروي ظمأى؟."

لم يستطع العجوز رفض هذا الطلب، وهكذا أشار له بطرف بندقيته نحو زجاجة الماء الصغيرة التي ربضت بجوار مقعده الخشبي، وقال بصرامة:
"تفضل لكن لا تنسى أنني لن أتردد في إطلاق النار عند أول بادرة غدر."

أمسك النحيل بالزجاجة، وهو يغب الماء عبا، أنهى الزجاجة ومسح فمه بكم قميصه، ثم تمتم شاكرًا:
"شكرًا لك."

رفع الغفير فوهة بندقيته نحو رأس النحيل، وقال بحزم: "والآن.. من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟."

أشار النحيل للمقعد وقال بألم: "هل يمكنني أن أجلس، فقدمي تؤلمني بشدة".

أشار له الغفير، فجلس النحيل في إرهاق، سأله: "هل أنت بخير؟."

أشار له النحيل نحو قدمه، وقال: "إصابة قديمة".

ثم كشف النحيل عن قدمه، يحاول الحاج إبراهيم أن يتبين إصابته، لكن الظلام والضباب تكاتفا سويًا ليحجبا الرؤية عن عينيه الضعيفتين، هز رأسه قائلًا: "أسأل الله أن يشفيك."

نظر له النحيل وسأله بفضول: "ماذا تفعل هنا ؟".

أشار له الحاج إبراهيم نحو البوابة، وقد بدأ يتخلى عن حذره قليلًا، وقال: "أنا" غفير على هذه الأرض."

قال النحيل: "لكن الوقت تأخر، ووجودك هنا خطر يا حاج".

رفع الغفير بندقيته مرة أخرى، وقال محذرًا: "معي سلاحي، ولن أتردد في الدفاع عن نفسي".

وقف النحيل، وابتسم بسخرية قائلًا: "لكنها لن تجدي نفعًا أمام بعض الأشياء."

شعر الغفير بقليل من الخوف يغزو قلبه، وارتعدت يده قليلًا وهو يرى النحيل يتقدم عارجًا على قدمه المصابة، فقال محذرًا: "أعتقد أنه قد آن أوان

رحيلك". لكن النحيل لم يتوقف، وقال بنبرة حازمة: "اخفض بندقيتك يا حاج إبراهيم."

ارتعشت يد الحاج إبراهيم أكثر، حتى كادت البندقية تسقط من بين يديه، وقال بيأس محاولا السيطرة على نفسه: "تراجع وإلا قتلتك!".

قهقه النحيل وقال بسخرية: "هل يمكنك قتل من قتل من قبل؟."

ضغط الحاج إبراهيم الزناد، انطلقت الرصاصة، لكنها اخترقت جسد النحيل الذي استمر في التقدم نحوه بدأ الحاج إبراهيم يتراجع، لكنه سرعان ما فقد توازنه وسقط أرضًا، آلمه جسده من السقوط، فقد بندقيته التي اندفعت بعيدًا عنه.

اقترب منه النحيل، ولأول مرة يرى الحاج إبراهيم قدمه المصابة، المسلوخة الرهيبة

رفع النحيل قدمه المسلوخة، ودهس بها عنق الحاج إبراهيم، الذي مدّ يده، وأمسك بها محاولاً إبعادها عن عنقه، لكن خوفه والرعشة الشديدة التي تسللت إلى أصابعه حالا دون ذلك، في تلك اللحظة.. تداعت إلى ذهنه ذكريات الجرائم المروعة التي اجتاحت

الجزيرة في الآونة الأخيرة النداهة وأبو منشة، وحسن البحري.. والآن جاء دوره.. ليموت على يد أسطورة جديدة حاول التقاط أنفاسه، لكن الأمر كان صعبًا، فقد زادت القدم من ضغطها على عنقه، بدأ يشعر بالدوار يكتنف رأسه بشدة. لم يكن يتخيل أنه سيكون الضحية الجديدة للأساطير والآن.. ها هو ذا سيموت تحت قدمي (أبو رجل مسلوخة).

لم يجد من الهواء من يكفي صدره، سعل بشدّة، لكنه لم يستطع التنفس، دارت به الدنيا، وضاق صدره واكتنفه الدوار، أغلق عينيه، واستسلم للدوار.

مرت عدة لحظات، قبل أن يرفع (أبو رجل مسلوخة) قدمه عن عنق الحاج إبراهيم، الذي تحول إلى جثة هامدة، تأمله بسخرية للحظة، قبل أن يرحل ويختفي وسط الضباب مرة أخرى.

تاركًا جثة ضحيته من خلفه.

(19)

هبط العمدة من غرفته يتهادى على درجات السلم بكبرياء يعانق السماء، نظر لشيخ الغفر الذي يقف منكس الرأس بانتظاره، كغصن ينتظر عاصفة قوية

لف عباءته حول جسده، وهي حركة اشتهر بها العمدة وتوقف في منتصف الدرج، عاليا فوق عبد المعبود متعمدًا إجباره على رفع رأسه لينظر إليه.

سأله في نفاد صبر: "ما الأمر يا عبد المعبود؟ هل من جديد في الجزيرة؟."

رفع عبد المعبود عنقه ونظر للأعلى وقال: "لقد وقعت جريمة قتل جديدة، هذه المرة راح ضحيتها الحاج إبراهيم الغفير، ويقولون أن."...

طالعه العمدة في استفسار، فتابع عبد المعبود حديثه قائلًا: "يقولون إن أبو رجل مسلوخة هو من أزهق روحه."

ظهرت على شفتي العمدة ابتسامة ساخرة، قبل أن يجيبه "اجمع الغفر واذهب للقيام بالمطلوب، ولا تنسى أن ترسل لي شحتة بمجرد عودة القوارب للعمل."

كاد العمدة يرحل، لكن عبد المعبود ألقى بكلماته كحجر في بركة ساكنة: "لكن يا حضرة العمدة..".

استدار له الغمدة بدهشة، لا يجرؤ أحد هنا على

كسر كلمة العمدة، تجرأ عبد المعبود وقال: "يجب أن يتوقف هذا الجنون."

اكفهر وجه العمدة وأجابه بحدة: "فلتجد طريقة لإيقافه إذن ما شأني أنا بذلك؟."

تلعثم عبد المعبود قليلًا، قبل أن يُجيبه: "لا أقصد ما يحدث بالجزيرة الآن، فأنا مؤمن أنه يحدث لسبب، ولأننا نستحقه"

انعقد حاجبي العمدة، قبل أن يسأله: "ماذا تقصد إذن؟."

تردد عبد المعبود قبل أن يقول: "أفعالك، أقصد أفعالك.. يجب أن تتوقف عمّا تُخطط له، يجب أن تترك الجزيرة وشأنها، أو على الأقل.. دع شرور شحتة الدجال بعيدة عنها."

طالعه العمدة بغضب مكتوم للحظات، قبل أن يقول: "لولا أنني أعرفك منذ زمن بعيد لضربتك بالنار فورًا، لكنني أعرف جيدًا أنها ليست طباعك، اذهب للقيام بما أمرتك به، وسيكون لنا حديث آخر عندما تعود."

هر عبد المعبود رأسه، وانصرف غير مصدق لأنه لم يلق حتفه بعد، بينما تحسس العُمدة مسدسه وهو يهمس لنفسه مُراقبا انصراف شيخ الغفر: سأجعلك عبرة لمن يعتبر يا عبد المعبود!

***

بات السير على ضفاف الترعة، والذي كان يوما ملاذه، مجرد رغبة باهتة. فالآن صارت العودة لغرفته حيث تجلس تلك الفاتنة على (المصطبة) بجوار صينيتها، تنتظر عودته ليتبادلا أطراف الحديث سويًا، قبل أن تتركه مع طعامه، وتعود لمنزلها، هو الحلم الذي يتوق له طوال اليوم.

هذه المرة لاحظ بوضوح طيف القلق يرتسم على محياها ميز ضيقها من على بعد، فأسرع الخطى مقتربًا، جلس قبالتها على الجانب الآخر من الصينية وسألها بلهفة: "ما الأمر؟."

أجابته بقليل من الخوف: "لقد وقعت جريمة أخرى".

سألها: "هو؟."

ابتلعت ريقها بصعوبة، وأومأت برأسها مؤكدة.

نظر إليها لبرهة، قبل أن يقول، وكأنه يرغب في مزيد من التأكد: "أبو رجل مسلوخة؟."

أومأت برأسها مجددًا، فعض على شفته السفلى، قبل أن يقول: "لقد دعوت الله ألف مرة لأن أكون مخطئًا، رغم يقيني التام بأنني محق."

قالت وهي ترتجف: "ما زلت أعتقد أن هناك تفسير آخر."

أجابها بجدية: "إن كل ما يحدث يثبت نظريتي."

قالت: "صحيح، لكن لابد من وجود تفسير آخر!".

قال: "ترفضين التصديق لأن شقيقك الصغير متورط بالأمر، لكن ها قد أثبتت الجريمة الأخيرة صحة نظريتي."

هزت رأسها بالنفي، قبل أن تقول بصوت بالكاد مسموع: "لابد من وجود تفسير آخر!".

سألها باهتمام محاولاً استجلاء الحقيقة: "كيف عرفوا أن القاتل هو (أبو رجل مسلوخة)؟."

أجابته: رأى" غفير قطعة أرض مجاورة رجلًا نحيلًا بقدم مسلوخة يسير عارجًا، مبتعدًا عن مكان القتيل

وهو من نشر الخبر بين أهل الجزيرة."

قال وهو ينظر إلى الجزيرة من أمامه: "وبالطبع صدقه الجميع."

أجابته: "ودون ترددا".

ثم نظرت إليه بحدة وقالت: "لطالما كنت الوحيد بيننا الذي يُعارِض فكرة الأساطير، ويرفض تصديقها تماما، والآن.. أحاول إثناءك عن اعتناق تلك الفكرة لكن بلا جدوى."

تنهد قبل أن يقول مستسلما لمشاعره المتضاربة: "لقد كُنتُ مُخطئًا."

تابعت حديثها بنفس الحدة وقالت بعتاب: "لا، لم تكن مخطئًا، ولم تكن مقتنعًا بالأمر منذ البداية، جل ما في الأمر هو أنك كنت تبحث عن مخرج لنفسك، كيلا يلصق بك أحدهم تهمة القتل، وبدت لك هذه الفكرة أسهل طريقة ممكنة."

كاد يُدافع عن نفسه، لكنه اكتفي بالقول: "وإن كان... لا أرى في ذلك عيبًا."

نظرت له للحظة قبل أن تقول معتذرة: "آسفة، أنا متوترة للغاية، ما زلت لا أصدق أن حسان الصغير يتحول الأسطورة قاتلة في المساء."

أجابها بحنو : أفهم ما تشعرين به، وأعلم أن الأمر...

قاطعته بحزم، وفي صوتها زخم الأسى: "لا، أنت لا تفهم أي شيء، لأنك لم تُجرّب أن تكون مكاني، ولم تشعر يوما بمرارة أن يتهم شقيقك الصغير بجرائم قتل وحشية، أنت لا تفهم أي شيء مما أمر به."

لم يُعاتبها على قسوتها، فهو يعلم جيدا مدى عمق الجراح التي خلفتها الظروف والأحداث الأخيرة صمت وتركها غارقة بين أفكارها، سألته: "والآن؟."

بادلها سؤالها بآخر وقال: "والآن ماذا؟."

نظرت له وقالت: "ماذا سنفعل؟."

قال: "أربعة أطفال، أربعة جرائم، أعتقد أن سلسلة الجرائم ستتوقف عن هذا الحد، أو أن الكرة ستبدأ من جديد بجريمة قتل ترتكبها النداهة."

سألته بجدية : "ماذا لو لم تتوقف سلسلة الجرائم؟".

قال بحزم: "عندها سأضطر للتدخل بنفسي لإيقافها، حتى لو عنى ذلك..".

صمت، فنظرت له بخوف وهي تسأله: "حتى لو عنى ذلك ماذا؟."

ابتلع ريقه، وأشاح بنظره بعيدًا وهو يقول بصوت خافت: "أن أقتلهم بيدي!".

(20)

تململ العمدة في مرقده، والأرق يعتصر عينيه فيجافيه النوم، إلا من بضع ثوان كل عدة دقائق يستيقظ بعدها ليتقلب في فراشه كالسمكة فوق الموقد، لم يكن البرد هو السبب بالتأكيد؛ فهو يسجي غطاء ثقيلا من الصوف فوق جسده، لكنه التفكير، أو (الفكر) كما يقول أهل الجزيرة.

تمنى أن تزول هذه الغمة عن البلدة اليوم قبل الغد، لا لشيء إلا لاستغلالها لصالحه، يجب أن يأتي الواد شحتة الدجال هنا، وأن يتحدث معه بصراحة شديدة فلو أن له يد فيما يحدث، فلابد أن يكون للعمدة نصيب من الغنيمة، وإلا فسيأمر بالقبض عليه، وإن لم يكن له يد فيه، فليجد طريقة هو

وجيشه المسخر من الجن، ليساعد العمدة على إحكام قبضته على الجزيرة.

انجرفت أفكاره نحو الواد عبد المعبود، والذي لم يكن (واد) بكل تأكيد، لكن العمدة دائمًا ما يستخدم تلك الألفاظ للتقليل من شأن الغفر وأهل الجزيرة، كيف تجرأ هذا الوغد على تحديه بهذه الطريقة؟ ومنذ متى بدأ يخالفه الرأي أو يُعارضه؟

حسنًا يا عبد المعبود يا ابن نفيسة الداية، كلها أيام ويأتي البوليس إلى هنا، وسأخبر حضرة الضابط أنني رأيتك بعيني وأنت تقتل الواد بيومي في الترب وابقى وريني كيف ستتخلص من حبل المشنقة الذي سألفه حول رقبتك؟ ودع لسانك الطويل ينفعك يا ابن الداية تقلب على جانبه الأيسر، أحكم رفع الغطاء حتى عنقه، وأوشك على إغلاق عينيه، لكنه رأى شخصا يقف على باب غرفته في صمت يراقبه دون حراك انتفض في فراشه وقال مرتجفا: "من هناك؟ من أنت؟."

و سرعان ما دس يده تحت وسادته، يبغي الوصول لخنجره الذي يتركه دائما تحت رأسه، تحسبا لأي

غدر أو خيانة، لكنه لم يجده عاد لينظر إلى الدخيل مجددًا، فوجده يمد يده بالخنجر المفقود، قبل أن يتركه يسقط أرضًا.

تأمل العمدة الدخيل بعينين مليئتين بالهلع، شعر بقلبه يكاد يتوقف من شدة الخوف، وهو يدور بعينيه يمينًا ويسارًا بحثًا عن مخرج أو مفر من هذا المأزق دون جدوى، فالنوافذ مغلقة، والباب الوحيد للغرفة يقف أمامه الدخيل ليحول دون وصوله إليه.

قال العمدة بصوت حاول جاهدًا أن يبدو متماسكًا، لكنه خرج من بين شفتيه مرتعشًا فاضحًا للخوف الذي يفيض داخل نفسه حتى يكاد يُغرق قلبه داخل صدره: "أتعرف من أنا يا واد أنت؟."

أمال الدخيل رأسه جانبًا، دون أن ينبس ببنت شفة تابع العمدة حديثه، وقد ازداد صوته ارتجافًا جراء حركة الدخيل: "أنا العمدة يا ولد."

تقدم الدخيل قليلًا، فلفه نور القمر وكشف عن ملامحه قريبًا، رجل ملتم يرتدي طربوشًا أحمر اللون فوق رأسه، ويُغطي جسده بمعطف صوفي ثقيل وما يُمسك به بيمناه كان كومًا آخرًا. المنشة الشهيرة

القادمة رأسا من عالم الأساطير اتسعت عينا العمدة في هلع، وهو يقول: "أنت.. أنت أبو منشة!".

اقترب منه الدخيل دون كلمة واحدة، وأخرج من تحت معطفه هراوة خشبية غليظة تزين متنها مسامير حادة، وقبل أن يتحرّك العمدة قيد أنملة، انهال عليه ضربًا، مزقت المسامير لحمه وهشمت الهراوة عظامه.

وعندما خمد جسده، تركه الدخيل غارقًا في بركة من دمائه، وفتح باب الغرفة ورحل وهو يفكر كيف سيصل لضحيته التالية الموجود في جزيرة مجاورة!

***

اجتمعا سويًا على (المصطبة) أمام منزله، يجلس كل منهما على أحد طرفيها، وتربض الصينية بالمنتصف لتفصل فيما بينهما، نظر لها بغضب دون أن يهيم بها عشقا كعادته، فطالعته بلوم رفع حاجبيه بدهشة فهزت كتفيها باستسلام.

قطع حوارهما الصامت وهو يقول بعتاب "ما زلت غاضبًا منك لأنك ضحكت علي يوم أخبرتك بنظريتي؟."

نظرت له بلوم بدورها وقالت: "لا يمكنك أن تلقي على مسامعي نكتة، وتغضب إن ضحكت!".

قال بغضب: "لم أقل أي نكات، كانت مجرد نظرية وما زلت مصممًا عليها."

سألته بمكر: "حتى وإن عرفت بما حدث اليوم صباحًا؟."

اعتدل في مجلسه باهتمام شديد وسألها: "ماذا حدث اليوم؟."

قالت له بخبث: "لن أخبرك إلا إذا سامحتني". ضيق عينيه وتفحصها بغيظ للحظات، قبل أن يقول: "حسنًا."

رفعت حاجبيها وقالت: "حسنا ماذا؟".

أجابها: "حسنًا، أسامحك."

قهقهت طربا، وصفقت بيديها فرحة كالأطفال، قبل أن تعتدل وتقول: "لقد وجدوا العمدة مينا على فراشه ويقولون إن أحدًا لا يملك صلاحية الوصول إلى غرفة نومه سوى قلة قليلة من رجاله الموثوقين، ومن المستحيل أن يكون أحدهم هو القاتل."

جاء دوره ليرفع حاجبيه بدهشة، ثم قال: "هل هناك أي أدلة على هوية القاتل؟".

صمت قليلًا، ثم أضاف: "أو ماهيته؟."

هزت رأسها بالإيجاب، ثم أجابته قائلة: "لقد وجدوا شيئا بجواره، يدلهم وبكل وضوح على هوية القاتل لكن توقفت لإضافة بعض التشويق على حديثها، لكنه لم يطق صبرًا على الانتظار، فأشار لها أن تستكمل حديثها: "هناك عدة أشياء مختلفة عن الجرائم السابقة."

سألها باهتمام: "عدة أشياء؟ مثل ماذا؟."

قال: "لأن هذا القاتل يُحاول التملص من جريمته، ويُحاول الصاقها بالأساطير، لكنها جريمة مختلفة ومستقلة بذاتها، وغير مرتبطة بما سبق من جرائم."

شهقت بخوف وقالت: "هل تعني وجود قاتل آخر بين ضفاف الجزيرة؟."

هز رأسه بالموافقة، وقال: "الخبر السيء؛ أجل.. هناك قاتل آخر في الجزيرة. أما الخبر الجيد؛ أن هذه جريمة انتقام، وهذا يظهر جليًا في كل تفاصيل

الجريمة وأعتقد أن القاتل لن يقتل المزيد من الضحايا، فقد أنهى مهمته."

سألته بدهشة: "كيف لك أن تعرف كل هذه التفاصيل؟."

شعر بالخجل يختلط مع بعض الزهو بداخله، فأجابها بقليل من التوتر: "يبدو أنني أمضيت الكثير من الوقت في قراءة الروايات."

ابتسمت قبل أن تقول: "أعتقد أن هذا يُغير كل شيء."

هز رأسه وقال: "أعتقد هذا، هذه الجريمة لا تنتمي السلسلة الجرائم المروعة التي تحدث."

سألته بقليل من التوتر: "هل لا زلتُ مُصممًا على أن الأطفال هم القتلة؟."

هز رأسه بالموافقة، لكنها لاحظت التردد الذي شاب تلك الموافقة، فقررت أن تقتنص تلك اللحظة، وقالت: "لدي فكرة!".

نظر لها بدهشة للحظات، قبل أن يقول : "تفضلي."

صمتت قليلًا، وكأنها تستجمع أفكارها، قبل أن تقول: "أخبرتني من قبل عن الطفل الذي يتحدث عن الأساطير التي سترتكب جرائم القتل قبل أن تحدث وكأنه يتنبأ بالمستقبل أو أنه مطلع على سيناريو مسبق، أليس كذلك؟."

استرجع تلك الذكريات للحظة قبل أن يُجيبها...

***

قاطعه حسان قائلًا بثقة: "لكن يا أستاذ هناك نداهة حقا، وهناك العديد من الأساطير مثل أسطورة حسن البحري، تلك الأساطير التي يؤمن أهل الجزيرة بأنها حقيقية."

سأله حسان بحذر طفولي: "ولا حتى أبو منشة يا أستاذ؟."

***

قال حسان مشاكسًا، متسلحا بطيش الصبا: "يعني ذلك أنك قد أصبحت (أبو رجل مسلوخة)".

***

تذكر أنه لم يُخبرها أن شقيقها الأصغر هو ذلك الصبي، فابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يقول: "هذا صحيح."

التمعت عيناها وهي تقول: "إذن يجب أن تبحث خلف هذ الصبي، فالحل عنده هو."

فكر قليلا، قبل أن تستقر فكرتها في روحه بهدوء، هز رأسه بهدوء لنفسه، وقد عرف تمامًا ماذا سيفعل بعد ذلك، فلديه خطة ذكية.. إما أن تفسر حقيقة ما يحدث في تلك البلدة، أو أن تثبت صحة نظريته.. ويتأكد من أن هؤلاء الأطفال يتحولون الأساطير قاتلة!

(22)

أنهى مروان مراجعة درس اليوم بروية معهودة تبادل عدة كلمات مع الأطفال، وتلا ذلك حوار قصير مع والد هنادي الذي حضر ليصطحب ابنته. ورمق شقيق عمر ثقيل الظل بعدة نظرات حادة، مشحونة بالاستياء. ثم سمح لشقيقة فريد أن تصحبه هو وحسان، لأن نسيمة اعتذرت عن الحضور اليوم، ابتسم لها بلطف دون معارضة سامحا لها باصطحاب

الطفلين، مكتفيا بمحاربتها لخجلها ومشاكلها مع التواصل.

تظاهر بجمع أشياءه التي لم تكن سوى كتابين يتيمين، قبل أن ينطلق متباطئا خلف فريد وحسان لا تلفت أنظار أهل حافظ على مسافة مناسبة الجزيرة - تفصل فيما بينهم من حسن حظه أنها سارت بالأطفال في طريق السوق المركزي، وهكذا... فحتى لو رآه أحدهم، سيتظاهر بالذهاب للسوق لشراء أي شيء.

لكن الأحداث المروعة التي اتخذت من الجزيرة مستقرًا في الآونة الأخيرة جعلت أهلها يمشون كالسكارى، لا يدري أحدهم بما يحدث من حوله، ولا يدرك من يتحرك عن يمينه غارقين في بحر من الحيرة والخوف، يُفكّر كل منهم في احتمالية أن يكون هو أو أهل بيته، ضحايا للجريمة القادمة.

اتسعت أعينهم بذهول وعدم تصديق، حين علموا بأن العمدة قد راح ضحية لتلك الجرائم بدوره المشكلة.. أن البوليس قد أرسل لإحضار قارب جديد

من مكان قريب، ورغم ذلك، فلا زال أمامهم عدة أيام قبل أن يأتوا إلى هنا.

وبالتالي.. ستعيث الأساطير في الجزيرة فسادًا لحين وصول الشرطة.

والله أعلم، هل سيتوقف هذا العبث؟ أم ستستمر الأساطير في هذا الجنون وتحصد أرواح رجال الشرطة كذلك؟

سار مروان بحذر، متخفيًا وسط الزحام، بينما انطلقت شقيقة فريد مُمسكة بيدي الطفلين، حتى وصلت إلى منزلها، ودعت، حسان، ووقفت للحظات تراقبه وهو يبتعد قبل أن تدخل إلى المنزل برفقة شقيقها.

تابع مروان الصبي، محافظا على مسافته وتخفيه حريصًا على عدم لفت حسان، والأسوأ.. عدم لفت أنظار أي شخص آخر من أهل الجزيرة.

فأن يتهموه بارتكاب عدة جرائم قتل، وبأنه قاتل عتيد، خير وأبقى من أن يتهموه بوجود علاقة بينه وبين الأطفال خصوصًا وأنه مُدرس يتعامل مع

الأطفال يوميًا، وتهمة كهذه كفيلة بتدمير شمعته وشرفه تمامًا!

وصل حسان إلى منزله، لكنه لم يدخل من بابه الأمامي، بل دار من حوله، في تصرف بدا لمروان غريبًا ومثيرا للريبة، فعادةً ما يتوق أي طفل للذهاب إلى منزله، خصوصًا بعد انتهاء الدراسة، كما أن تلك المنطقة النائية خلف المنزل بدت كمكانٍ محفوف بالمخاطر في ظل الأحداث الجارية.

تبعه بحرص شديد إلى ما خلف المنزل، محتبئًا خلف جذع شجرة قديمة، مال قليلا ليتلصص على حسان الذي بدأ يتلفت حوله، وكأنه يشعر بوجود من يُراقبه قبل أن يطمئن لكونه وحيدًا ، اتجه نحو كوخ خشبي صغير، يقف وحيدًا خلف المنزل، وقف أمام بابه المزين بقفل معدني كبير، تلفت حوله مرة أخرى، وكاد يكتشف مروان الذي تراجع سريعًا خلف شجرته.

ظن حسان للحظة أنه رأى شيئا، فأمعن النظر بالشجرة، قبل أن يُقرّر أنه محض وهم، ويعود للنظر إلى باب الكوخ.

تنفس مروان الصعداء، بينما مد الصبي يده تحت صدر جلبابه، وأخرج مفتاحًا مُعلّقًا بحبل حول رقبته تلفت حوله مرة أخيرة، قبل أن يمد يده بالمفتاح ويفتح القفل، فتح الباب ودخل إلى الكوخ المظلم الذي بدا وكأنه ابتلعه بداخله، قبل أن يغلق الباب من خلفه.

سمع مروان القفل يُغلق من الداخل، انتظر قليلًا حتى هدأت الأمور، وتسلّل برفق متفحصا الكوخ، لم يكن مجرد بناء خشبي كما ظن في البداية، بل هو كوخ حجري، مغلفة جدرانه بالأخشاب، لا يحتوي إلا على باب صغير في مقدمته، ونافذة صغيرة مغلقة بقضبان معدنية على جانبه، تسمح بمرور بصيص من أشعة الشمس لداخله.

اقترب مروان من تلك النافذة الصغيرة، وألقى نظرة خاطفة إلى الداخل، قبل أن يمنع نفسه بصعوبة من أن يشهق عندما رأى ما بالداخل!

***

أغلق حسان الباب خلفه برفق، وفي ضوء الشمس الخافت المتسلل عبر قضبان النافذة، تأمل الشخص

الجالس أمامه، قبل أن يهمس: "كيف حالك اليوم؟".

أجابه الآخر بصوت خافت: "بخير.. أعتقد."

جذب حسان مقعدًا أمام مكتب وجلس عليه، لاحظ ورقة صغيرة فوق المكتب مرسوم عليها رسم بدائي الشخص جالس في حقل فسيح، تأملها حسان للحظة ورغم بساطتها إلا أنه سأله بإعجاب: "هل أنت من رسمها؟."

هز الآخر رأسه بلا اهتمام يذكر سأله حسان بفضول: "أتود الخروج والجلوس في حقل واسع ؟".

ظهرت أمارات الاهتمام على وجه الآخر، واعتدل في فراشه الصغير، الذي جلس عليه منذ دخول حسان وسأله بلهفة: "ممكن؟."

هز حسان رأسه بأسى، وقال: "للأسف لا، أنت تعرف القواعد!".

عاد للجلوس بخيبة أمل هامشا دون اهتمام "أعرف."

استقام حسان في مقعده، وسأله بحنو: "هل أكلت؟."

أوماً برأسه نحو صينية صغيرة، مغطاة كما هي، وقال: "أحضرتها والدتك، لكنني لم أكل منها شيئا بعد."

تنهد حسان وقال: "يجب أن تأكل."

هز الآخر رأسه بلا مبالاة، وأجابه: "أعرف ذلك أيضًا."

التمعت عينا حسان وهو يقول بحماس: "لكنك لا تعرف ما حدث في البلدة خلال اليومين الماضيين".

ظهرت أمارات الاهتمام على محيا الآخر، واعتدل في فراشه متسائلًا: "ماذا حدث ؟."

أومأ حسان برأسه نحو الصينية وهو يقول: "تناول طعامك وسأخبرك بكل شيء."

تنهد الآخر، ونهض متجها نحو الصينية، وخلال ذلك مر بضوء الشمس للحظات، فظهرت ملامحه جلية شهق مروان بالخارج في دهشة عندما رآه، قبل أن يضع يده على فمه ليكتم صوته.

أمام عيني مروان، وتحت نور الشمس الخافت ظهر شخص مشوه بشدة، ذاب لحمه حتى تكتل وتشوهت ملامحه حتى تحوّل لمسخ حي التصقت

أصابعه وظهرت عظام بعض المناطق من قدمه، كان شخصًا أحرقت النار ملامحه وأذاب اللهب لحمه.

جلس أمام الصينية، وكشف عن محتوياتها بحركة بطيئة، أمسك الملعقة بأنامل ملتصقة بصعوبة، سأله حسان بعطف: هل تحتاج لمساعدة؟."

هز المشوه رأسه رافضًا وقال: "قص علي ما جرى."

قال حسان: "لقد قتلوا الغمدة."

نظر له المشوه بدهشة، وهز رأسه قائلًا: "هذه جريمة ملفقة."

سأله حسان بفضول: "كيف عرفت ذلك؟".

قال المشوه وهو يعود لتناول طعامه دون شهية "لأنك لم تعرب لي عن شكوكك في الأسطورة التي سترتكب تلك الجريمة لطالما أخبرتني بشكوكك في حسن البحري قبل أن يرتكب جريمته، وأخبرتني بشكك في (أبو منشة) أيضًا، وهكذا فعلت أيضًا في (أبو رجل مسلوخة)".

تناول ملعقة أخرى، وأخذ يلوكها ببرود قبل أن يقول: "لكنك لم تفعل ذلك الآن، وهذا يعني أنها جريمة

ملفقة، وأنها ليست ضمن تلك السلسلة."

سأله حشان باهتمام: "هل أنت متأكد؟."

ابتسم المشوّه بسخرية وهو يقول: "بل أكثر من متأكد."

سأله حسان مرة أخرى: "كيف؟."

أجابه المشوّه: "لأنني وضعت نفسي مكان مرتكب تلك الجرائم، ووجدت هذه الجريمة غير متناسبة مع جدولي، أو رغباتي، أو حتى أهدافي."

قال حسان مازحًا: "لكنك لست القاتل."

نظر المشوّه إلى الباب المغلق وقال: "ومن يدري ربما أكون!".

سأله حسان بحذر: "هل كنت لترتكب تلك الجريمة؟ وتقتل العمدة؟."

أجابه المشوه بثقة وحزم: "قولًا واحدًا لا. لأنه لا داعي لارتكاب جريمة تستفز رجال الشرطة أو المسؤولين، كما أنني كنت لأنتهج أسطورة أخرى، أو أكرر الأمر من البداية وأبدأ من النداهة."

سأله حسان بفضول: "لكن.. ألا تؤمن بالأساطير؟."

ابتسم المشوه بسخرية وقال: "لا، لا أؤمن بوجودها، ولا بتورطها في تلك الجرائم، لأنني أعرف يقينا هوية القاتل."

رفع حسان حاجبيه بدهشة وقال: "تعرف هوية القاتل؟."

قال: "جيّدًا. ثم ترك الملعقة، وفرك كفيه ببعضهما البعض قائلًا: "والآن.. عد للمنزل كيلا تتأخر، وخذ هذه الصينية معك."

هر حسان رأسه، نهض ليأخذ الصينية، وقال: "لم تأكل!".

أشار المشوه لمعدته وقال مبتسمًا: "أكلتُ حتى شبعت."

انسحب مروان مبتعدا عن النافذة قبل أن يخرج حسان مغادرا المنطقة بخطى سريعة، وهو غير مصدق لما رآه وسمعه للتو.

(22)

جلس على مصطبته يتلظى على جمر من نفاد صبر، لا يكاد يطيق بالجلوس ذرعًا، ينتظر ظهورها بفارغ

الصبر، وكأنه غريق ينشد نجاته في ظهورها، وأخيرًا... جاءت تتهادى تمسك بالصينية بين يديها، وعلى شفتيها، ابتسامة صبغها الخجل بالحسن، حتى أضحت أروع ما رأت عيناه.

لكنها سرعان ما ابتلعت ابتسامتها، فور أن لمحت القلق الذي ارتسم بجلاء على محيا مروان، وضعت الصينية بينهما، كعادتها، وسألته بنبرة ملؤها القلق: "هل أنت بخير؟ ماذا حدث؟."

هز رأسه نافيًا، لكنه لم ينبس ببنت شفة، سألته مرة أخرى بفضول: "ماذا حدث؟."

عض شفته السفلي، وكأنه يُغلق فمه كيلا تخونه الكلمات المتدافعة خلف شفتيه، نظرت له بقلق للحظة قبل أن تلتمع عيناها بفهم، سألته: "هل تبعت الصبي؟".

أومأ برأسه بالموافقة، وعيناه تثمان عن تردد، صمتت للحظة، وتدبرت في الأمر، قبل أن تسأله: "وماذا اكتشفت؟."

زفر في توتر، فسألته: "ما الأمر إذن؟ أخبرني!".

هز رأسه نافيًا، وهو ما يزال يُحافظ على صمته طالعته بعتاب وهي تقول: "أخبرني يا مروان تعرف أن بإمكانك أن تثق بي، أليس كذلك؟."

تردد للحظة، وكأنه يُقر بحيرته، لأنه لا يعرف إجابة هذا السؤال حقًّا.

انعقد حاجباها في غضب، قبل أن تقول وهي تستعد للرحيل: "إذن يمكنك أن تخبرني حينما تشعر أن بإمكانك الوثوق بي."

نهضت وكادت ترحل، لكنه أمسك بيدها لتبقى

نظرت ليده بدهشة فتركها بسرعة، ورفع يديه معتذرًا

نظرت له بلوم، فأشار لها بالجلوس، وللمرة الأولى منذ وصولها نطق بنبرة خالطها الندم: "سأخبرك بكل شيء".

نظرت له بترقب وحذر، فأشار لها بالجلوس مرة أخرى وقال: "أعدك بذلك."

جلست أمامه، فرك كفيه معا للحظة، وكأنه يستجمع شجاعة خفية من أعماقه، نظر أرضًا، وتنهد بعمق، ثم قال: "أنت تعلمين أنكِ أكثر من أثق

به هنا، وأنني لا أثق بسواك". ابتسمت ابتسامة فاتنة قلقة، لكنه أضاف مترددًا: "لكن."..

تلاشت ابتسامتها، وظهر على محياها القلق، تنهد مرة أخرى، قبل أن يعتدل وينظر لها متسائلًا: "عديني أن تسمعيني حتى النهاية، وألا تغضبي مني، ممكن؟."

أجابته بقلق: "أعدك."

سألها بجدية: "مهما حدث؟."

أضافت ونيران قلقها تتأجج بداخلها: "مهما حدث."

تنهد، وصمت لبرهة، وكأنه يستجمع أفكاره، وينتقي كلماته، قبل أن يقول: "كما أخبرتك من قبل، هناك صبي من بين الأطفال، يتحدث عن الأساطير قبل أن تحدث، يبدي قلقه وخوفه من ارتكابها لجرائم لم تكن قد وقعت بعد."

قالت بترقب: "أجل، لقد أخبرتني بذلك."

تنفس بعمق، ثم قال: "قرّرتُ أن أتبع هذا الصبي وبالفعل تسللت خلفه بعد الدرس، دون أن يراني أو يشعر بوجودي تبعته حتى وصل إلى منزله، لكنه

سرعان ما غير مساره منحرفًا عن دربه، وقرر أن يذهب إلى كوخ حجري منعزل خلف منزله."

اتسعت عيناها وهمست بدهشة: "حسان."

أومأ رأسه بالموافقة، وهو ينظر إليها بحزن، هامشا: "آسف أنني لم أخبرك من قبل."

اغرورقت عيناها بالدموع هزت رأسها بغير تصديق وكأنها ترفض استيعاب كلماته صمت وقال بصوت مكسور: "كنت مخطئا، آسف."

هزت رأسها بالنفي، وقالت من بين دموعها بصوت متهدج: "لا، تابع حديثك."

توقف للحظة، ونظر إليها وهي تكفكف الدمع عن وجنتيها قبل أن يسألها: "هل أنت متأكدة؟."

هزت رأسها وهمست له تابع حديثك، من فضلك."

تنفس بعمق ثم قال بصوت حمل ثقل الأسرار: "وهناك.. رأيت شابًا مشوها، وكأنه خرج من أعماق الجحيم، حبيسًا داخل هذا الكوخ الذي فتحه حسان بمفتاح معلق إلى عنقه، قبل أن يتبادل معه حديثًا لم أسمع معظمه لأنني كنت أسترق السمع من الخارج، حريصًا على ألا يروني أو يشعروا بي."

هزت رأسها ببطء، وابتلعت ريقها بمرارة، لكنها لم تنطق بل تركته يستكمل حديثه.

استطرد مروان: "لكن مما فهمته من القليل الذي استطعت سماعه، فإن هذا المشوّه يجزم بمعرفة هوية القاتل، ويؤكد لحسان أن القاتل ليس الأساطير كما يظن الناس، وأن مرتكب جريمة العُمدة ليس هو نفسه مرتكب نفس الجرائم السابقة، والغريب.. أنه يؤكد هذا ويجزم به تمام الجزم".

عضت شفتيها بألم والدموع تتسلل من عينيها رغم مقاومتها، أضاف مختتمًا حديثه: "هذا الكوخ خلف منزلكما، وحسان يملك مفتاحه، وهكذا عرفت أن لكما علاقة بهذا الشاب، لكنني لم أكتشفها بعد."

هزت رأسها، وابتلعت ريقها بصعوبة مرة أخرى، قبل أن تقول بصوت خنقته الدموع: "نعم، لنا علاقة به، دعني أفسر لك كل شيء."

تنهدت مسحت دموعها بكم فستانها، وبصوت متهدج قالت: "إن هذا المشوه .. هو شقيقنا الثالث بل والأدهى من ذلك.. إنه توأمي توأمي الذي تحاول إخفاء وجوده عن العالم بأسره."

زاد تدفق دموعها على وجنتيها وهي تقول: "توأمي الذي اكتشفت أنت سره، وكشفت ستر هويته ومكانه بعد كل تلك السنين."

صمتت قليلًا مسحت أنفها ودموعها، ثم قالت بصوت مختنق : "توأمي الذي.."

انخرطت في نوبة بكاء مفاجئة، فاندفعت من أمامه بخطوات سريعة، دون أن تنطق بكلمة أخرى، ناداها مرتين.. لكنها لم تلتفت له من الأساس، وكأنها لا تسمعه أصلا!

تنهد وحمل صينيه قبل أن يدخل إلى غرفته، يبدو أنه أخطأ حين اعتقد أن بإمكانها تحمل الحقيقة، كشف عن محتويات الصينية الفول والطعمية والباذنجان حسنًا، لا بأس سيتناول عشاءه وينام، وغدًا سيفكر في خطة جديدة يحاول بها حل لغز جرائم أساطير زهرة الجبل!

***

استيقظ من نومه على صوت حركة خفية في غرفته، لعن الله الفئران وتحركاتها المزعجة، تقلب على جانبه بقلق، وهو يُفكر في الأماكن التي قد تتسلل

منها الفئران إلى داخل غرفته واعدًا نفسه بسد كل تلك الأماكن في الصباح كيلا تزعجه الفئران مرة أخرى.

شعر بحموضة تحرق ،صدره ابتلع ريقه بصعوبة، حسنًا؛ سيبحث عن بعض اللبن في الصباح ليخمد به نيران الحموضة المتأججة في صدره ومعدته، لكن الآن؛ يجب أن يعود للنوم سريعًا.

ساد الصمت للحظات قبل أن يسمع صوت الحركة الخفية مرة أخرى، هذه المرة تنهد بعمق، وقد أيقن أن هذا الفأر اللعين لن يتركه وشأنه في تلك الليلة الليلاء.

اعتدل على فراشه تحسس الكومود الصغير الرابض بجوار فراشه حتى وجد علبة الثقاب، أخرج أحد أعوادها، وأكمل رحلة تحسسه للكومود، حتى وجد شمعته الحزينة ترقد على جانبها بعد أن أتعبها الوقوف.

أشعل عود الثقاب، وثبته بجوار الشمعة، حتى اشتعل فتيلها وراقص لهبها العتمة قبل أن يُبددها قليلا، قربها من الأرض، متفحصًا ثنايا غُرفته بحثًا

عن ذلك الفأر اللعين، دار يُمنةً ويُسرةً، باحثًا عن أي أثر له، قبل أن يلمح شيئا لفت نظره.

قدم بشرية مشوهة التصقت أصابعها ببعضها البعض، وذابت أظافرها داخل لحمها المتقشر في بعض الأماكن كاشفا عن عظام نخِرة، ابتلع مروان ريقه بصعوبة وهو يرفع شمعته للأعلى ببطء، متفحصا باقي الجسد - العاري - الواقف أمامه، حتى وصل للوجه المشوه الذي تحترق عيناه بشر وحقد لا حدود لهما.

شهق مروان بخوف، وقد تعرفه على الفور، همس المشوه بصوت مخيف: "لقد كشفت سري."

تراجع مروان أمامه، وهو يبحث عن أي كلمات يجيبه بها، لكن الخوف شل أحباله الصوتية تماما، اقترب منه المشوه، وعيناه تلتمعان بالشر والحقد رغم الظلام شعر مروان بالهلع يجتاح جسده، تراجع للخلف قبل أن يرتطم بالحائط، الذي حال بينه وبين التراجع مبتعدًا عن المشوه أكثر من ذلك، ارتجف جسده بشدة، وهو يدرك استحالة هروبه من أمام ذلك الرجل.

تأمله وهو يقترب، وتأمل ملامحه التي تنضح بالشر، وعينيه اللتين تلتمعان بالحقد، ولم يجد بدا من أن يلقي بالشمعة عليه، وعلى الفور اشتعلت النيران في جسد المشوه، وكأنه صُنع من مادة سريعة الاشتعال.

صرخ بألم وهو ينقض على مروان الذي أسرع من أمامه، راوغه بسرعة معتمدًا على شدة الألم الذي تعتصره به ألسنة اللهب المُضرمة في جسده، وكاد يفر نحو باب الغرفة، لولا أمسك المشوه بكتفه بيد ساخنة كالجمر، وألقى به أرضًا في منتصف الغرفة.

حاول أن ينهض، لكن الأخير جثم فوقه، وثبته أرضًا بقوة لا تلين صرح بشدة والنيران تؤلمه ذاب جلده وبدأ يسقط على جسد مروان الذي حاول التملص من بين قبضتيه دون جدوى تذكر، حاول الهروب من بين يديه، لكن المشوه ثبته أرضًا، وبدأ يخنقه. آلمه اللحم الذائب عندما لمس جسده، صرخ بشدة والألم يجتاحه، اقترب منه المشوه بشدة، وبدأ يذوب فوقه، صرخ ألمًا حتى فقد قدرته على الصراخ أكثر من ذلك، لم يغد جسده يحتمل هذا الألم، وهكذا أغلق عينيه، مستسلمًا لكل شيء، مدركًا أنها قد تكون المرة الأخيرة التي يُغلق فيها عينيه... للأبد..

(23)

لم تظهر اليوم اختفت من حياته تماما، وكأنها لم تكن حرمه غيابها من حسن طلتها، وافتقد وجودها بشدة، فهي صديقته الوحيدة في هذه الجزيرة وبغيابها .. تركته يغرق في بحر من الوحدة، فلا يجد من يحاوره.

جلس على مصطبته وحيدًا بصمت، لا يجد من يؤنس وحدته، مُفكّرًا فيما حدث خلال الأيام القليلة الماضية، ويعض أنامل الندم على تصريحاته التي فرقت بينه وبين نسيمة، متجرعًا مرارة فراقها وغيابها وحيدًا.

تعاقبت الساعات الثقيلة واحدة تلو الأخرى، وهو يتأمل الطريق الذي تتهادى منه حينما تأتيه، لكنها لم تظهر غمرته مشاعر الذنب، وأدمى اللوم قلبه، فلام نفسه ألف مرة، وتمنى لو ابتلع لسانه قبل أن يُسر لها بما توصل إليه، لكن ما حدث قد حدث، ولا داعي أو نفع يرجى من لوم نفسه عليه، وهكذا ابتلع مرارة ذنبه والتزم الصمت.

لم تظهر كذلك في الدرس، واصطحبت شقيقة فريد الطفلين بدورها، بعد أن خاضت حربا ضروسا مع خجلها الاجتماعي، كاد يشتبك مع شقيق عمر اليوم أيضًا، بل وكاد يطرده هو وشقيقه من الفسحة، لولا تدخل والد هنادي الحليم الذي هدأ من وطأة الأمور قليلًا.

بعد أن انتهى الدرس قرر أن يتجه إلى ضفاف الترعة ملاذه الأثير في وحدته داخل جنبات تلك البلدة، لكنه لم يجد سلامه النفسي هناك، بل زادت وحدته اليوم من توثره.

تجاهل الصوت اللؤام الذي يصدح بالعتاب بداخله وابتلع ريقه بعد أن أثقلته المرارة، وقرر أن يتجه لمنزلها، ويطالعه من بعيد، عله يلمحها أو يطمئن عليها، بل وربما تسنح له الفرصة فيتحدث إليها أو يعتذر لها.

لكن البيت بدا كئيبًا، وقد خيم عليه البؤس، وكأنه قد حزن على خزنها دق قلبه بشدة خوفًا من أن يراه أحدهم يحوم حول المنزل، لكنه قال لنفسه أنه سيخبر أي شخص يراه بأنه قد جاء ليطمئن على

حسان أو ينصحه في شيء بخصوص منهجه الدراسي.

لكنها لم تظهر، ولم يرها من الوقوف، فقرر العودة إلى غرفته، جلس أمامها منتظرًا ظهور حوريته رغم أن قلبه أخبره مرارًا وتكرارًا أنها لن تأتي، لقد فقدها... للأبد!

غربت الشمس، وأظلمت سماء القرية، تناقص عدد السائرين في أزقة الجزيرة بمرور الوقت، خوفًا من الأساطير التي تنتشر ليلًا لتصطفي ضحاياها، ظل جالسًا أمام غرفته حتى من الانتظار، وغلبه اليأس فنهض متثاقلًا، مترنحًا كمن أثملته حرقة الوجع، داخلً إلى غرفته.

فكر في تناول طعام العشاء، لكن شهيته لم تتحمس لتلك الفكرة، وهكذا اكتفى بشربة ماء، قبل أن يخلد إلى النوم.

اجتاح التوتر نفسه، مع اقترب ميعاد النوم، خوفا من الكوابيس التي لم تفارقه يوما منذ أن جاء إلى هنا، خشي النوم كمن يخشى الطاعون، لكن لابد من النوم فأمامه يوم طويل بالغد سيبدأه بدرس مع الأطفال

كعادته، قبل أن يُفكر في طريقة لكشف لثام الغموض عن ذلك المشوه، وسبر أغوار قصته الغامضة.

لكن.. وعلى غير العادة .. لم تُهاجمه الكوابيس تلك الليلة، وتركته يحظى - للمرة الأولى بنوم هانئ مريح دون أن يعرف أن الأيام القادمة ستعوض غياب الكوابيس، وتسقيه من الرعب كؤوسا مريرة لا حصر لها.

***

أنهى الدرس دون أن يرى لها أثرًا، فكر في القيام بعدة أشياء، لكن الجوع آلم معدته، حيث إنه لم يذق شيئًا منذ الأمس، عاد متثاقلًا إلى منزله فور انتهاء الدرس، دون أن يُكلّف نفسه عناء تبادل أطراف الحديث مع والد هنادي أو ملاحظة تطورات القلق الاجتماعي لشقيقة فريد، أو حتى مشاكسة شقيق عمر التي تحولت العادة يومية.

فقد شغفه في القيام بأي شيء، أراد فقط العودة إلى المنزل، وقضاء اليوم منزويًا حتى يحل ميعاد النوم ثم النوم استعدادًا لبدء يوم جديد، وهكذا حتى يقضي ما

تبقى من أيامه إلى أن يرحل من هذه الجزيرة المشؤومة.

بمجرد أن اقترب من غرفته رآها تجلس على (المصطبة)، وبجوارها الصينية المغطاة بقطعة القماش النظيفة، كذب عينيه، ورفع يده ليفرك عينيه في دهشة رآها تجلس هناك.

صحيح أن الحزن قد فرد أشرعته على محياها فأضفى كآبة غير مألوفة على وجهها الحسن زاد من شرعته، حتى وصل إليها ، وقَفَ أمامها يفكر في خزينة كلماته بحثًا عن جملة مفيدة يُحييها بها، لكن لسانه عقد أمام عينيها الحزينتين.

كانت هي أول من تحدثت، قالت: "أنا آسفة."

ابتلع ريقه وقال: بل أنا من يجدر به أن يعتذر لم يكن من المناسب أن."...

أشارت له أن يصمت قليلًا، فابتلع البقية الباقية من كلماته، ساد الصمت بينهما للحظات، قبل أن تقول: "هل أكلت؟."

هز رأسه نافيًا، فكشفت عن محتويات الصينية أمام عينيه، طبق أرز بالشعيرية يتصاعد منه البخار، طبق

شوربة لحم دسمة تسبح بها بعض قطع الدهن وطبق آخر من السبانخ التي تعوم فيها قطع لحم بقري شهية ورغيفان من الخبز البلدي، سال لعابه أمام الطعام فجلس بجوارها وبدأ يتناول طعامه في لهفة، قرص الجوع معدته فأنساه آداب الطعام، لكنها شعرت به وتفهمت مشاعره، فجلست تتأمله في هدوء وسكينة.

وخلال دقائق كان قد انتهى من تناول الطعام، تاركا الأطباق أنظف من الصيني بعد غسيله كما يقولون نظر لها وأدرك مدى شراهته فتوردت وجنتاه بالخجل وهو يقول واجمًا: "آسف، لابد وأن منظري كان مثيرًا للاشمئزاز."

قالت في هدوء: "ليس حقا". مسح كفيه ببعضهما البعض، قبل أن يقول: "اسمعيني."..

قالت له: "لا، بل اسمعني أنت، واسمعني جيدًا، فلدي من الأخبار ما سيثير دهشتك."

رفع حاجبيه بدهشة، قبل أن يُشير لها بأن تستكمل حديثها ابتلعت ريقها وقالت بصوت خفيض: "هذا الشاب المشوّه الذي رأيته هو شقيقي، توأمي كما

أخبرتك من قبل، وأخبرتك أيضًا أننا تحاول إخفاء هويته ومكانه عن العالم بأسره، ولولا اكتشافك لسره ما حدثتك عنه يوما، حتى لو."...

صمتت و توردت وجنتيها خجلًا هم مروان بالحديث لكنها أشارت له بالانتظار قليلًا، وقالت: "هذا الشاب هو السر الذي يبحث عن أهل الجزيرة، هو من يقتل أهلها، ويحصد أرواحهم، يظن كل من يراه ويتأمل تفاصيل وجهه المشوه أنه أسطورة مرعبة، لكن أحدًا لا يعرف أنه شاب طبيعي للغاية، يُعاني من تشوهات مرعبة."

قال هامسًا: "القاتل؟."

أومأت برأسها وهي تضيف: "هو النداهة، وأبو منشة وأبو رجل مسلوخة، وحسن البحري".

مسحت دمعة خانتها وسالت من عينها قبل أن تضيف: "لقد كنت محقا منذ البداية، لا وجود للأساطير، القاتل من بني البشر بالفعل، القاتل هو.. هو توأمي."

كفكفت دموعها وتابعت: "وهكذا دفعت حسان ليحكي لك عن الأساطير للفت نظرك، ودفعتك لتتبع

حسان، أملًا في اكتشاف الحقيقة بنفسك، لأنك لم تكن لتصدقني لو لم تره بعينيك!".

تذكر أنها هي بالفعل من دفعته لتتبع حسان، لكنه ظن آنذاك أنها لم تكن تعرف هوية الصبي الذي يحدثها عنه، تابعت حديثها قائلة: "كُنتُ أعلم منذ البداية أنه القاتل، يجب أن تعرف أنها ليست جرائمه الأولى لكنني أردت أن يكتشف أحدهم شره، وأن يضع حدًا لجنونه."

نظر إليها متسائلًا: "لكن لماذا أنا؟ كان بإمكانك أن تخبري أي شخص آخر؟."

نظرت إليه لبرهة قبل أن تقول بخوف: "لأنك ضحيته القادمة.. والأخيرة."

ابتلع ريقه بصعوبة، وعينيه تتسعان فزعًا أمام كلماتها المرعبة!

(24)

نظر لها بدهشة ممزوجة بالخوف امتلأت عيناه بالفزع العميق أمام تصريحها الأخير، وبصوت هامس لا يكاد يسمع، سألها: "أنا ضحيته التالية؟."

نكست رأسها، ونظرت أرضًا، سالت من عينيها الدموع، لتسقط أرضًا، قبل أن تقول بصوت مختنق كالريح في الأروقة المهجورة: "أجل، كما أنني.."

سألها بفضول محموم: "ماذا؟."

رفعت رأسها بتردد، نظرت في عينيه وقالت بصوت يكسوه الحزن: "أكن لك المشاعر!".

اختلج قلبه للحظة رفرفت الفراشات داخل معدته وارتعد جسده للحظة وهو يسأل نفسه هل اعترفت بحبها للتو؟ لكن.. لكن لو كانت صادقة فيما قالت؛ فهذا يعني أن أيامه معدودة، لأنه الضحية القادمة لذلك القاتل المشوه غمر فيضان من الظلام كل الفراشات التي رفرفت في معدته، قتلها عن بكرة أبيها، حطم أحلامه، وجرف البساتين التي أينعت بحبها داخل فؤاده.

نظر لها بذهول للحظات ابتلع ريقه بصعوبة، وسألها هامسًا: "أنا؟ حقا."

عضت شفتها السفلي بقلق، ونظرت أرضًا مرة أخرى، انهمر المزيد من دموعها لتروي الأرض الجدباء تحت قدميها، قبل أن تقول بهمس يُشبه

حفيف الأوراق: "أخبرني أنك ضحيته التالية، وأنه سيتوقف عن القتل لبرهة بعد ذلك."

ارتعد مرة أخرى، تذكر كابوسه الرهيب، المشوه وهو يهاجمه، ويحاول خنقه لحمه الذائب وهو يكوي جسده، مرت قشعريرة حادة في جسده للحظة، قال:

"سأغادر هذه الجزيرة."

سألته بسخط: كيف تنوي الرحيل؟ القوارب الجديدة لم تأت بعد!".

قال بحزم لا يلين: "سأجد طريقة!".

أجابته بسخرية: "أما كان من الأولى أن تجد الشرطة تلك الطريقة لتأتي إلى هنا وتوقف فورة القتل اللعينة تلك."

فكر في قولها للحظات قبل أن يقول: "سأختبئ".

سألته بدهشة: "هل تظن أنك أدرى بالجزيرة منه؟ من شخص نشأ وتربى على الاختباء بين أحضانها بعيدًا عن أعين أهلها ؟."

قال بسرعة وثقة: "أنا ماهر في التخفي."

أجابته بيقين تام: "أنت واهم."

نظر إليها للحظة، قبل أن يستسلم للواقع، ارتخى كتفاه ونكس رأسه وهو يقول: "وما الحل إذن؟."

عضت على شفتيها، وكأنها تحاول منع سيل الكلمات من التدفق خارج فمها، وبعد لحظات قالت بجدية: "الحل أن تزيل مصدر الخطر."

نظر لها بحيرة للحظة قبل أن يسألها: "ماذا تقصدين؟."

أجابته بصوت خفيض يحمل وقع الجدية: "أن تقتله قبل أن يقتلك!".

صدم أمام كلماتها، وقال بدهشة: "أقتل؟ لا، لست قاتلًا، ولا يمكنني القتل!".

بكت بشدة، ودفنت وجهها بين كفيها وهي تقول: "لا أريد أن أفقدك لا أتخيل حياتي بدونك!".

مشت كلماتها شغاف قلبه، فنظر إليها بدهشة للحظة استمرت في البكاء دون أن ترفع وجهها من بين كفيها، ابتلع ريقه بصعوبة، قبل أن يقول هامسًا بإصرار، وكأنه يحدث نفسه: "لن أقتل!".

قالت من بين دموعها بصوت مكتوم: "سيقتلك! إنه لا يعرف للرحمة معنى أو سبيل!".

همس مرة أخرى وهو يتذكر كابوسه: "لن أقتل!".

رفعت عينيها، ونظرت له بحزم وقالت: "لن أفقدك!".

هز رأسه وكأنه يرفض الفكرة من الأساس، تابعت حديثها قائلة: "ليس هناك سوى خيارين فقط، إما أن تقتله، أو أن أقتله أنا فموتك ليس بخيار مطروح على طاولتي!".

لم يُصدق أن ملاكًا بريئًا مثل نسيمة يُمكنها أن تفكر في القتل، وهي اللي ترتعد خجلًا كلما غازلها، قال وكأنه نسي بقية الكلمات: "لن أقتل!".

وقفت بحزم وقالت بصرامة: "حسنًا، سأواجهه أنا. وعلى الأرجح سينتهي بي المطاف قتيلة جديدة تنضم لقائمة ضحاياه، لكنني سأموت سعيدة لأنني فعلت ذلك من أجلك!".

هز رأسه، لكنها تابعت: "لكن بعد موتي.. سيأتي ليقتلك وهكذا سيضيع موتي سدى!".

همس لنفسه مرة أخرى بحيرة: "لا أريد أن أقتل".

سألته بنبرة جادة: "هل ترغب في الموت؟."

تحسس عنقه وهو يتذكر المشوّه الذي جثم فوقه في كابوسه ليخنقه وهو يذوب فوقه، ابتلع ريقه بصعوبة وبصوت مسموع، قبل أن يهز رأسه نافيًا.

نظرت في عينيه، وسألته: "هل تريدني؟."

أومأ برأسه بقوة، وقال: "لا أريد سواك."

تنهدت بعمق، وقالت: فلتقتله" قبل أن يقتلك إذن، لا أريد أن أفقدك اقتله.. وسأقول إنني رأيت أي أسطورة من الأساطير تقتله وسيصدقني أهل الجزيرة."

فكر للحظة تحسس عنقه مرة أخرى، اقتربت منه حتى شعر بدفء جسدها، وهمست في أذنه: "لا أريدك أن تموت، ابق حيا، اقتله!".

ابتلع ريقه بصعوبة، نظر إليها نظر في عينيها اللتان تلتمعان بسبب الدموع، ثم انجرفت نظراته نحو شفتيها الحمراوين كثمرتي فراولة في عنفوان نضجهما، ابتلع ريقه مرة أخرى، وقال بصوت مرتجف: "سأقتله.. من أجلك!".

ابتسمت بحزن عميق وقالت: "من أجلنا.. ستقتله من أجلنا!".

اغرورقت عيناه بالدموع، غير مصدق ما آلت إليه أموره، فمنذ أيام لو أخبره أحدهم أنه سيضطر للقتل لإنقاذ حياته، ما صدق ولو للحظة. والآن.. ها هو ذا يجد نفسه يفكر في طريقة يرتكب بها جريمته، دون أن يزهق القاتل العتيد روحه نظر إليها، وكأنه قد أدرك لتوه صعوبة مهمته، وسألها: "لكن كيف؟."

أجابته: "سأضع مُخدّرًا في طعام العائلة، حتى يغطوا في نوم عميق، وسأترك لك القفل مفتوحًا، وهكذا سيمكنك التسلّل هناك دون أن يشعر بك أحد، كما سيمكنك دخول الكوخ، ومباغتته قبل أن يستعد لك."

قال هامسًا وكأنه يُذكر نفسه: "لكنني لم أقتل من قبل."

أجابته بحزم: "استغل عنصر المفاجأة".

أحرقته عيناه من شدة البكاء، فقال بصوت متهدج: "لم أقتل من قبل."

مسحت دموعه عن وجهه وقالت: "افعلها من أجلنا".

ارتعد جسده للمستها، خفق قلبه بشدة، ابتلع ريقه بصعوبة، فقال: "سأفعلها.. من أجلنا!".

مدت يدها وأخرجت سكينًا كانت قد خبأته بين طيات ملابسها، وضعته بجواره على المصطبة لمست خذه مرة أخيرة، قبل أن تبتسم له بحزن، وتهمس: "من أجلنا".

ثم ترحل وتتركه وحيدًا مع سلاح جريمته الأولى!

***

بعد منتصف الليل، تسلّل مروان في أزقة الجزيرة متخفيا كيلا يراه أحد، يلف وشاحًا صوفيا ثقيلا على وجهه ليخفي ملامحه لا يُريد أن يتعرف عليه أي شخص، ويشهد أنه قد رآه يتسلل ليلا نحو بيت القتيل لأنه عرف يقينا أنه إن شوهد وهو يتسلل بهذه الطريقة، سيتهم بكل الجرائم التي حدثت في تاريخ الجزيرة وصل إلى منزل حسان ونسيمة دار من حوله، متجها إلى وجهته الكوخ الحجري الصغير، المنعزل خلف المنزل، تسلل إليه وهو يتلفت حوله.

لا أحد يراه.. هذا جيد!

تأمل المنزل جميع نوافذه مظلمة، والسكون يُخيم عليه من كل حدب وصوب، يبدو أنها خدرت الجميع كما وعدته، مد يده نحو القفل، ووجده مفتوحًا. تنهد بعمق، واستجمع قواه ثم فتح القفل، وفتح الباب لكنه لم يتوقع أبدًا.. أبدًا.. ما كان بانتظاره بالداخل ولا حتى في أسوأ كوابيسه طرًا!

(25)

دخل مروان إلى الكوخ بسرعة، أغلق الباب من خلفه وأغلق عينيه للحظة، وكأنه يستجمع ما تبقى من شجاعته، قبل أن يستدير لينهي ما جاء من أجله، لكنه بمجرد أن استدار، وجد مفاجأة لم تكن الحسبان أبدا في انتظاره.

أمام عينيه، وبين أحضان الظلام الدامس، وجد المشوه يجلس على المقعد، في منتصف الغرفة، واضعا قدم فوق الأخرى، نظر إليه للحظة، وكأنه لا يُصدق ما تراه عيناه، أشعل المشوّه عود ثقاب، أضاء لهبه الكوخ قليلًا، وابتسم قائلًا: "أهلًا يا مروان.. لقد كنتُ في انتظارك!".

***

تذكر مروان كابوسه المروّع الأخير، حاول أن يتراجع هربًا من المشوه، لكنه وجد نفسه محاصرًا، فالمشوه من أمامه، وباب الكوخ من خلفه، استل سكينه من بين طيات ملابسه وقال محذرًا: "أنا مسلح."

أكلت النار عود الثقاب، لكن قبل أن يلقيه أرضًا، أشعل به شمعة، ووضعها على المكتب بجواره، قبل أن ينفخ في العود ليطفئه، دفع مقعدًا آخرًا نحو مروان وقال: "تفضل بالجلوس."

تردد مروان للحظة قبل أن يحسم أمره، جذب المقعد وجلس في مواجهة المشوه محافظا على مسافة لا بأس بها تفصل فيما بينهما، قبض على سكينة بقوة أكبر، وقال: "كيف عرفت أنني قادم؟."

ابتسم المشوه وقال: "أولًا اسمي رضا".

ثم مد يده نحو مروان، ليصافحه، نظر له مروان للحظة، دون أن يتحرك، رفع رضا يده عاليًا وهو يقول: "حسنًا، لا بأس بذلك."

سأله مروان مرة أخرى : كيف عرفت أنني قادم؟."

أجابه رضا بلا مبالاة: "لقد كنت في انتظار زيارتك منذ أن رأيتك تراقبني أنا وحشان، من وراء هذه النافذة".

أومأ برأسه نحو النافذة التي وقف خلفها مروان ليسترق السمع إليهما، تابع رضا حديثه قائلًا: "وعرفت يقينًا أنك ستأتي إلى هنا، عاجلا أم آجلًا!".

سأله مروان بحدة وهل تعرف سبب قدومي إلى هنا؟".

هر رضا كتفيه، ثم قال: "لا، لكن يمكنني أن أخمن."

قال مروان دون أن يمنحه فرصة للتخمين: "جئت لأقتلك!".

ثم أضاف بصوت أجش يشوبه بعض الخوف: "قبل أن تقتلني!".

اتسعت ابتسامة رضا وهو يقول: "لكنني لا أخطط تجاهله رضا، وخر على ركبتيه، رفع يديه عاليًا وهو يقول: "تفضل! اقتلني!".

تأمله مروان للحظة، قبل أن يقول: "انهض! انهض ودافع عن نفسك كالرجال". قال رضا دون أن يستدير: "لا أعتقد أنك سترغب في ذلك !".

صرخ به مروان بغضب: انهض! لن أغتالك غدرًا!".
نهض رضا ببطء واستدار ليواجه مروان، هذه المرة..
ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وهو يقول:
"الدرس الأول: استغل الفرص عندما تأتيك!".

ارتفع حاجبا مروان في دهشة، وهو يتأمل رضا الذي
بدأ يقترب منه بخطوات واثقة، وقال: "الدرس الثاني:
احفظ تضاريس ميدان معركتك عن ظهر قلب.

أنهى كلماته بنفخة ضخمة، زلزلت كيان لهب
الشمعة الذي تراقص محاولاً مقاومتها، قبل أن
يستسلم وينطفئ تمامًا، ساد الظلام الكوخ بأكمله، إلا
من ضوء خافت تسلّل من بين قضبان النافذة، سمع
صوت رضا يتردد في الظلام: "الدرس الثالث: استغل
كل ما يحيط بك!".

وقبل أن يتمكن مروان من تحديد مكانه تهشم
المقعد على كتفه الأيمن صرخ مروان بقوة والسكين
يسقط من يده، احتضن السكين الظلام وأخفاه عن
عيني مروان الذي بدأ يدور حول نفسه، وهو يمسك
بكتفه، محاولا تحديد موقع مهاجمه.

سمع صوت رضا، من خلفه، يقول: "الدرس الرابع: لا تدر ظهرك للعدو.. أبدًا!!".

لف رضا ذراعه حول عنق مروان، وبدأ يخنقه، ضاق صدر مروان، وحرّك جسده يمينًا ويسارًا، في محاولة يائسة للتملص من قبضة مهاجمه المحكمة، لكنه فشل في ذلك فشلًا ذريعًا، حاول التنفس، لكنه لم يجد ما يكفيه من الهواء، اختنق وبدأ يحتضر وهو يمد يديه محاولًا الوصول إلى أي شيء.

اصطدم شيء نحيل بأصابعه، لابد وأنه القلم الذي يرسم به رضا، أمسكه مروان دون تردد، كاد يسقط من بين أصابعه جراء الضعف الشديد الذي هاجم بدنه بفعل نقص الهواء، لكنه أمسكه بإحكام، وغرسه في وجه رضا، الذي صرخ بألم وهو يُحرّره من قبضته.

استدار مروان، ورأى القلم يخترق صدغ رضا والدماء تتدفق من حوله، انتزعه رضا بألم وهو يصرخ قبل أن ينظر لمروان، الذي همس: "دعني أطبق درسك الأول، وأستغل تلك الفرصة."

ركل رضا في معدته بكل ما أوتي من قوة، قبل أن يقول بسخرية: "شكرًا على النصيحة."

تأوه رضا والهواء يتدفق هاربًا من بين شفتيه انحنى وهو يُمسك ببطنه، قبل أن يحاول مروان معالجته بضربة قوية بركبته في أنفه، أمسك رضا بركبة مروان قبل أن تضرب أنفه، وقال مستهزئًا: "الدرس الخامس: لا تستسلم للألم!".

ثم جذب مروان بقوة نحوه اختل توازن مروان الذي كان يقف على قدم واحدة وهو يسقط أرضًا، بصق مروان بعض الدماء أرضًا، قبل أن ينحني ويلتقط شيئًا من على الأرض.

التمع نصل السكين في ضوء القمر، وانعكس على وجه رضا الملطخ بالدماء، وهو يرفع سلاحه عاليًا ويقترب من مروان، وقد التمع الشر في عينيه.

بدأ مروان يتراجع أمامه، يبحث عن أي شيء يُدافع به عن نفسه، لكن رضا اقترب منه بلا هوادة أو رحمة حاول النهوض، لكن الأخير لم يمنحه الفرصة أو المساحة الكافيتين للقيام بذلك.

استمر في التراجع إلى أن اصطدم بالفراش الصغير حاول أن يستند عليه، وينهض على قدميه، لكن رضا استمر في التقدم بلا تردد.

في اللحظة الأخيرة، رفع رضا نصله عاليًا، واندفع نحو مروان الذي استطاع النهوض أخيرا، لكنه لم يستعد توازنه بعد، لكنه على الأقل.. لن يموت وهو راقد أرضًا!

اندفع بدوره نحو رضا، في مواجهة ستنتهي بأحدهما جثة هامدة، وإن كان مروان - الأعزل هو الأقرب للعب هذا الدور المأساوي!

(26)

فتح باب الكوخ بعنف شديد، وبقي مفتوحا لبرهة، لا يخرج منه سوى ظلامه الدامس بعد لحظات يسيرة ظهرت هيئة رجل على عتبته تختبئ ملامحه وراء ستار الظلام الكثيف اتكأ على إطار الباب، مطأطئًا رأسه أرضًا، يتزعزع بشدة حتى في وقوفه، وكاد يهوي أرضًا، لولا تشبثه بالإطار الخشبي.

سعل بعنف، فتناثرت بضع قطرات من الدماء أرضًا، رفع يده ليمسح شفتيه فبرق نصل سكين حاد تحت

ضوء القمر، وظهر ملونًا بالدماء التي سالت من طرفه اضطربت أنفاسه، وهو يُحكم ترتيب قميصه الممزق ليغطي ما تيسر من جسده.

من مكمنها راقبته نسيمة عاجزة عن التعرف على هويته راقبته يسعل مرة أخرى، قبل أن يترنح مبتعدًا عن ظلمة الكوخ كشف ضوء القمر ملامحه تبينت هويته.. وشهقت في فزع.

كان وجه مروان مُزيّن بجرح غائر، وملابسه الممزقة تكشف عن صراع عنيف، بيد أنه كان على قيد الحياة يتعثر في خطواته تحت نور القمر، ممسكًا بالسكين الملطخ بالدماء، ينشج بشدة تقدم لبضع خطوات قبل أن يسقط على ركبتيه، ساعلًا بعنف، تناثرت عدة قطرات من الدماء لتروي الأرض تحته.

اندفعت نحوه ساعدته على النهوض، وتأملت ملامحه المنهكة، وعيناه اللتان تتراقصان بصدمة، لم تنبس ببنت شفة، لكن نظراتها صرخت بسؤال لم تجرؤ شفتاها على النطق به، فهم تساؤلها، فأومأ برأسه محاولًا التكلم، لكن نوبة حادة من السعال هاجمته بضراوة.

أنهى سعاله، ثم قال بصوت ضعيف: "لقد فعلتها."

اتسعت عيناها في فزع وهي تسأله: "هل قتلته؟."

أومأ برأسه، وهو يُكافح نوبة شرسة أخرى من السعال، قالت له: "تعال معي."

قادته إلى الباب الخلفي للمنزل، تركته واقفًا مستندًا إلى جداره، ودخلت سريعًا إلى المنزل، ثم عادت إليه بكوب من الماء، احتسى محتوياته برشفة واحدة وشكرها بإيماءة بسيطة من رأسه، نظر للمنزل المظلم ثم سألها: "هل ناموا جميعًا؟."

أومأت نسيمة برأسها ثم أجابته بهدوء: "الجميع نيام ولن يستفيقوا إلا صباحًا."

سعل مرة أخرى، قبل أن يقول بألم: "لقد فعلتها من أجلك، لكنها كانت مهمة بالغة الصعوبة."

ربتت على ظهره بحنو وافر وتلألأت ابتسامتها بالرضا لتكسو محياها ، رضا لم يعهده مروان من قبل ثم قالت: "من أجلنا."

نظر نحو الكوخ تراقصت عيناه رقصة صغيرة مع الفزع، ثم قال: "لكن."...

سعل مرة أخرى، هذه المرة كانت النوبة أقوى من سابقاتها، فانحنى تحت وطأتها مستندًا على ركبتيه حتى خمد سعاله، ورغم الحرقة التي اجتاحت صدره إلا أنه اعتدل، ناظرًا في عينيها، مستكملًا جملته: "لكن هناك شيء يجب أن تريه بنفسك!".

قايضت الرضا على محياها بفزع ممزوج بالفضول ثم سألته بصوت مرتجف: "ما الأمر يا مروان؟."

عاد للنظر نحو الكوخ، قبل أن يقول: "يجب أن تريه بنفسك!".

لم يمهلها فرصة للاعتراض أو للنطق بأي كلمة، بل استدار وسار مترنّحًا نحو باب الكوخ المفتوح، نظر خلفه، وأشار لها بالاقتراب، قبل أن يبتلعه الظلام داخل الباب، تبعته في تردد.

استندت بيدها على إطاره، ونادته بصوت خافت: "مروان؟".

لم يأتها أي رد، ولم تر أي حركة بين أحضان الظلام، نادته مرة أخرى: "يا مروان؟."

تشجعت قليلا، قبل أن تسبر أغوار الظلام، وتدخل إلى الكوخ تاهت في العتمة، وخفق قلبها بعنف لم

تعرف له مثيلا من قبل، وما إن خطت خطوة أخرى إلى قلب الظلام، حتى شعرت بحركة خافتة من خلفها.

استدارت بسرعة لترى الباب وهو يُغلق، وقبل أن تستوعب ما حدث شعرت بضربة قوية على مؤخرة رأسها ترنحت بشدة، قبل أن تنهار أرضًا، وقد فقدت وعيها، واستسلمت للظلام.

***

قبل قليل:

اندفع مروان نحو رضا القابض على السكين بقوة اندفعا نحو بعضهما البعض، وبمجرد أن اقتربا ألقى رضا بالسكين بعيدًا، واحتضن مروان المسرع إليه متشبثًا به أحكم قبضته على مروان، وهمس في أذنه: "لا أريد قتلك، ولا أرغب في الموت على يديك."

حاول مروان التملص من قبضته، لكن رضا كان قويا للغاية، همس رضا في أذنه: "لو أردت قتلك لقتلتك لكنني لا أريد قتلك، أريدك فقط أن تسمعني."

كاد مروان يقاومه مرة أخرى، لكنه تذكر أن رضا ألقى بالسكين، ولم يؤذه إلا دفاعًا عن نفسه، وهكذا

هدأت ثورة غضبه قليلًا، توقف عن المقاومة وقال: "حسنًا، لكن بشرط."

أفلته رضا، فوقف مروان أمامه يعدل ملابسه وهو يقول: "سأسمعك، لكن بشرط أن أمسك بالسكين طوال الوقت."

هز رضا كتفيه، في دلالة على أنه لا يهتم بالأمر حقًا، ثم أومأ برأسه نحو السكين، وقال: "كما تشاء، افعل ما تريد."

التقط مروان السكين من على الأرض دون أن يُبعد نظراته عن رضا، الذي وقف يُراقبه دون حراك، أشار له مروان بالسكين كي يجلس على الفراش، بينما عدل من وضع المقعد الآخر، بعد أن هشم الأول على كتفه قبل قليل، وجلس في مواجهته، تأمله مروان ما زال ينزف من الجرح الذي اخترقه القلم، بحث في أرجاء الغرفة، حتى وجد قطعة قماش التقطها من على الأرض، وأعطاها لرضا الذي كتم بها جرحه، وبعد لحظات بدأ يروي...

كل شيء!

(27)

قبل خمسة عشر عاما...

استيقظ الصغير على يد شقيقته وهي تهزه بإصرار لم يعهده فيها من قبل، فتح عينيه بكسل، ونظر إليها بدهشة ممزوجة بالتعجب وضعت سبابتها اليمنى على شفتيها الصغيرتين، في إشارة فهمها جيدًا بأن يلتزم الصمت تمامًا.

ابتلع ريقه بتوتر، وأومأ برأسه، أشارت بيدها الصغيرة نحو باب المنزل، نظر إليه فوجده مواربا، وصلته الرسالة على الفور، فأومأ برأسه مجددًا، نَهَضَ من فراشه وتبع شقيقته إلى الخارج بحث عن صوته حتى وجده، سألها بصوت صبغه الكسل: "ماذا يحدث؟."

قالت في حماس مشوب بالغموض: "يقولون إن النداهة ظهرت الآن على ضفاف البحيرة."

اتسعت عيناه في مزيج من الدهشة والحماس، وقال: "حقًّا؟".

اتسعت ابتسامتها، وقالت: "حقًّا".

عرفت في تلك اللحظة، أنها قد نجحت في جذب انتباهه، فلطالما كان مفتونًا بالنداهة دون غيرها من

الأساطير يتحدث عنها بشغف، ويرسم لها رسوما خيالية، وينشج حولها خيوط حكايات من تأليفه.

وقبل أن تخبو حماسته سألته بمكر: "هل ترغب في مرافقتي؟."

نظر نحو باب المنزل في تردد، لكنها عاجلته بقولها: "سنذهب ونعود قبل أن يُدرك أحد غيابنا، ها.. هل ترغب في مرافقتي؟."

ألقى نظرة أخيرة إلى الباب، قبل أن ينطلق خلفها نحو شاطئ الجزيرة، سارا معًا في صمت حتى بلغا الشاطئ، تلفت حوله قائلًا: "أين هي؟."

أشارت بيدها الصغيرة نحو الأفق، دون أن تشير إلى شيء بعينه، وقالت: "هناك، يجب أن نسير قليلًا بعد."

ابتلع ريقه بصعوبة، تأمل المنطقة الموحشة من السحيقة، ثم اعترف قائلًا: "أنا خائف."

نظرت له بلوم، ثم قالت بنبرة استفزازية: "حسنًا، فلتفوت على نفسك مشاهدة النداهة الأسطورية، لأنك خائف."

وتركته ومضت قدمًا، دون أن تترك له أي فرصة لينبس بكلمة أخرى ليُعارضها، وهكذا لم يجد بدا من السير خلفها، إلى أن وصلا إلى منطقة موحشة مظلمة.

هناك وقفت واستدارت نحوه بابتسامة غامضة، وقف أمامها مترقبًا، ثم سألها: "أين هي؟."

نظرت له بدهشة، وسألته: "ألا تراها؟."

هز رأسه نافيًا، ثم قال: "لا، لا أرى شيئا، أين هي؟."

أشارت له نحو الشاطئ القريب، وقالت: "هناك اقترب قليلًا حتى تتبينها."

اقترب من المكان الذي أشارت إليه، لكنه لم يجد شيئًا، تفحص المنطقة بعينيه للحظة، قبل أن يصل للنتيجة نفسها .. لا شيء.

استدار ليخبرها بذلك، لكنه وجدها تقف خلفه ممسكة بقالب من الطوب، وعلى شفتيها ترتسم أكثر ابتسامة مزدانة بالشر رآها في حياته، قالت بصوت مليء بالغل والحقد: "مع السلامة."

ثم ضربته بالقالب على رأسه، تحطم إلى قطع صغيرة، مثلما تحطّم وعيه وتلاشى في عتمة اللاوعي وسقط مغشيا عليه تحت قدميها!

***

استفاق بعد دقائق معدودات ليجد نفسه ما زال ساقطا على الأرض، أفاق من دواره وألمه بعد أن تبادرت إلى ذهنه تلك الذكرى الأخيرة شقيقته تضربه بقالب من الطوب على رأسه، انتفض جسده ذعرًا، وحاول النهوض، لكنه فوجئ بقيد يكبل حركته.

شعر بحركة خافتة قُرب قدميه، فأدار رأسه بمشقة متحديا ألمه - ونظر هناك، وإذ به يرى شقيقته تقيد قدميه بحبل غليظ، قال بصوت خنقه الألم: "ما الأمر؟ لماذا تفعلين هذا؟."

نظرت له بسخرية غير مكترثة بسؤاله، شعر بالفزع يفيض ليملأ قلبه، سألها وهو على شفا البكاء: "هل هذا مقلب ما؟ أو خُدعة ما؟."

قالت بغيظ: "لا، لقد ضقت ذرعا بتفضيلهم لك في كل شيء، سئمت المعاملة كظلك".

شدت الحبل حتى آلم قدميه، وتابعت: "أنا كيان مستقل لي حقوق وأتمنى لو سألوني عن رأيي في شيء، أو سمحوا لي باختيار شيء."

قال بألم: "ليس هذا ذنبي، لم أفعل يوما أي شيء يغضبك"

شدت الحبل مرة أخرى، وقالت بغضب: "ولا ذنبي كذلك أننا ولدنا في بلدة يُفضّلون فيها خلفة الذكور ويُقللون من الإناث، يشعر منهم من أنجب ذكرًا أنه قد امتلك الدنيا وما فيها، بينما يشعر منجب الإناث بالتعاسة والمهانة".

أحكمت ربطه وقالت: "لقد سئمت تفضيلهم لك، وسئمت ازدرائهم لي، أنا لا أطلب المستحيل كل ما حلمت به هو بعض التقدير والاحترام."

تمتم بيأس: "لكنني أحبك، وأقدرك، ولم أسئ معاملتك يومًا."

قالت في سخرية مليئة بالألم: "حتى الآن! ربما لم تسئ معاملتي حتى الآن لكنك ستفعل ما إن ينبت شاربك، وتشعر بذكورتك ستسيئ معاملتي مثلهم

تماما، وصدقني.. لن أنتظر تلك اللحظة". تحركت نحو شجرة قريبة، ناداها بهلع "أين تذهبين؟."

أجابته بسخرية: "لا تخف يا حبيب بابا وماما، لن أتركك وحيدًا، كنت أحضر هذه."

رفعت زجاجة بلاستيكية مليئة بسائل لم يتبينه في البداية، فتحت غطاءها، وأخذت تسكبه فوق جسده أدرك ماهية السائل بمجرد أن دغدغت رائحته أنفه، إنه جاز!

ارتجف صارخًا: "لا، لا، لا، لا أرجوك!".

تجاهلته تماما، وقالت بقسوة: "ربما يُحسنون معاملتي بعد رحيلك، ربما يرونني على حقيقتي؛ إنسانة بشرية لها مشاعر وكرامة، وليست مجرد تابع لشقيقها."

بدأ يبكي بحرقة، ومن بين دموعه استجداها قائلًا :

"أنا أحبك."

جزت على أسنانها بغيظ وقالت بغضب عارم: "وأنا أكرهك .. أكرهك بشدة."

أخرجت علبة ثقاب من ملابسها وقالت بنبرة أثقلتها المرارة: "ربما يوقف الموت التفرقة بين الأشقاء، ربما تقضي النار على التمييز بين الإخوة والأخوات."

أضرمت النار بعود الثقاب وألقته عليه، اشتعلت فيه ألسنة اللهب فورًا، وبدأ يحترق دون هوادة، أكلته النار وتأججت فرحًا بفريستها العاجزة عن المقاومة، صرخ كما لم يصرخ من قبل.

وقفت تراقبه وهو يحترق، انعكس ضوء النار على وجهها، كاشفا عن ابتسامة مريضة تلوح على محياها.

فجأة.. سمعت صوتًا من خلفها، التفتت لترى أربعة من السكارى يترنحون في ثمالة، قبل أن يروا النار ويُسرعون نحوها وهم يتعثرون في بعضهم البعض سقطوا أرضًا، ووقفوا مرة أخرى إلى أن وصلوا للطفل المحترق، تلفتوا حولهم في دهشة، إلى أن وجدوا غصن شجرة ملقى أرضًا، تعاونوا على دفعه في الماء التي أطفأت النار من فورها، لكنها لم تطفئ فورة الألم المبرح التي اجتاحت جسد الصبي، الذي لم يتوقف عن الصراخ.

نظروا إليها بدهشة، ثم سألها أحدهم: "من أنت؟."

سألها الثاني: "وماذا تفعلين هنا؟."

ثم قال الثالث: "والأهم من ذلك؟ من أنت؟."

قال الرابع: "وماذا تفعلين هنا؟."

ثم انفجروا في نوبة من الضحك في ثمالة، وساروا مترنحين مبتعدين عرفتهم على الفور، وميزت هوياتهم، كما أدركت أنهم ثملين لدرجة أنهم لم يعوا ما حدث للتو، ولم يفهموا شيئا، كما أن الشكر قد طمس ذاكرتهم على الفور، ورحلوا وهم يتبادلون الضحكات لكن.. ماذا لو تذكروا كل شيء في الصباح؟

جاء عدد من رجال الجزيرة على صوت صراخ الصبي، توارت مُبتعدة خلف جذع شجرة ضخم وراقبتهم وهم ينتشلون الجثة التي ذاب لحمها من المياه، قبل أن يتعاونوا على نقله إلى منزل الطبيب ليقوم باللازم

لكنها تاهت في متاهة من الأفكار والأسئلة التي لم تجد لها إجابات تعرف أنهم أتوا من غرزة علي الشاب الذي يتاجر في الممنوعات، والشهير هنا بأن غرزته مفتوحة لشرب كل شيء حرام لكن الثمالة قد طمست وعيهم وذاكرتهم بغيومها .. فمنعتهم من

تذكر أي شيء، ونسوا حتى الطفل المحترق بعد أن ألقوه في الماء.

الآن.. هناك مشكلتان في انتظارها!

ماذا لو تذكروا ما حدث في الصباح؟

وماذا لو نجى شقيقها من الحريق ووشى بها ؟

(28)

أنهى رضا حديثه قائلًا بقليل من الألم: "لكن أيا من الأمرين لم يحدث، لم يحتفظ الشهود الأربعة بأي ذكرى لما وقع في الصباح، ولم يش بها شقيقها، الذي نجي من الحادث، بعد أن تشوّه تماما وتحول إلى مسخ بشري!".

كانت هذه الجملة ختام حديث رضا، بعد أن سرد على مروان كل ما حدث، وأخبره بالسبب الحقيقي وراء تشوهه بالطبع لم يتقبله أهل الجزيرة فيما بينهم، بل وتعدى الأمر رفضهم، فطلبوا من والديه الرحيل عن الجزيرة لأن مرآه يفزع أطفالهم ويروع بهائمهم.

لكن والداه حبساه في ذلك الكوخ الصغير، وتركاه يعيش هنا كأسير ذنب لم يقترفه، محروما من أبسط

حقوقه الآدمية، تقبل كل شيء بنفس راضية، لكنه لم ينش قط ما فعلته به شقيقته.. توأمه.. بدافع الغيرة العمياء.

لم يصدقه مروان، لكنه أخبره أنه قادر تماما على إقناعه بشرط أن يستدرج نسيمة إلى هنا، وسينتظرهما رضا خلف الباب، ليضربها ويفقدها وعيها، ثم يربطاها إلى مقعد هنا، على أن يختبئ مروان، ويتركها لرضا الذي سيجبرها على أن تقر بالحقيقة كاملة.

تردد مروان قليلًا في البداية، لكنه سرعان ما استسلم للخطة، شريطة أن يحتفظ بالسكين، ويمتلك حق تحرير نسيمة وإنهاء الأمر حسب إرادته.

وها هم الآن.. نسيمة مربوطة إلى المقعد الوحيد في الغرفة، فاقدة للوعي، فيما يجلس رضا أمامها يحاول إفاقتها، بينما يقف مروان خلفها في مكان لا يمكنها أن تراه منه!

***

تمتمت نسيمة ببضع كلمات غير واضحة، وهي تكافح الألم، حاولت أن تمد يدها لتلمس موضع

الوجع الذي ينبض بالألم، قبل أن تنتبه لأنها مقيدة في المقعد. رفعت رأسها في فزع، وبدأت تتلفت حولها وكأنها تبحث عن وجه مألوف نادته بصوت مكلوم "مروان؟."

جاءها صوت توأمها من قلب الظلام وهو يقول: "لقد قتلته، ظن أنه قتلني، وجاء بك إلى هنا لتري جثتي لكنني قتلته، وأنت الآن تحت رحمتي".

قالت بتحد: "حررني.. أطلق سراحي وإلا صرخت وأخبرت أبي وأمي بكل شيء."

قهقه في سخرية وهو يخرج من قلب الظلام، وقف في نور القمر المتسلل من بين قضبان النافذة، وقال: "ألم تخدريهم كعادتك يا أختاه؟ لأن هذا من شيمك."

كادت تنكر لكنها استسلمت للأمر الواقع، إنه شقيقها.. توأمها .. أكثر من يعرفها، قال: "أنا أكثر من يعلم بحبك لهذه المواد المخدرة، ولهذا السبب تحديدًا.. طلبت من والدتنا ألا تسمح لك بتحضير طعامي، خشية أن تدسي لي شما ما في طعامي."

أشاحت بنظرها بعيدًا، وكأن رؤيته تؤلم عينيها، ابتسم ابتسامة حزينة، وسألها: "ماذا بك؟ ألا تطيقين النظر إلي؟."

نظرت إليه وقالت بشراسة وغضب: "لا، لا أطيقك ولا أطيق النظر إليك، إن وجودك يؤلمني.. يضغط على أعصابي.. ويثير جنوني وجودك يذكرني بخطيئتي وذنبي"

قال بلوم: "لكنك حاولت قتلي، حاولت التخلص مني! من منا يفترض به أن يكره الآخر؟."

قالت: "ويا ليتك مت! لكنتُ شعرت بالندم لكن وجودك تذكير دائم لي بفشلي، وبعجزي."

جلس القرفصاء أمامها، حتى أصبح وجهه ملاصقا لوجهها، وسألها: "لماذا؟ لماذا تكرهينني إلى هذا الحد؟ أنا حتى لم أش بك يومًا؟."

قالت بشراسة: "لأنك لم تش بي ربما بردت نيراني لو فعلت أو لو نلت عقابي عما اقترفت يداي لكنك أمامي دومًا.. تُذكرني بمدى خشتي.. ومدى تبلك! بمدى جحودي.. ومدى طهارتك ربما لو فعلت لهدأت ثورة غضبي، لكنك.... تنهدت، ونكست رأسها هربًا من

عينيه، قبل أن تُضيف بصوت خافت: "لكنك لم تفعل."

رفعت رأسها ونظرت إليه، ثم قالت: "لقد فعلت كل شيء لأهرب من خطيئتي عشت طويلا.. في عذاب لا يوصف كل يوم أستيقظ فزعة من أن يتذكر أحدهم ما حدث في تلك الليلة، أو أن تمل الصمت فتشي بي."

قال: "لكن هذا لم يحدث."

أجابته: "وهذا يؤلمني إلى أن اكتفيت من هذا العذاب، وقررت أن أضع له حدًا، وسهرت لشهور طويلة أرسم خطة لا يُمكن لعقل بشري أن يأتي بمثلها".

صمتت قليلًا ثم قالت: "وجاء وقت ضحيتي الأولى... حامد.. أول من رآني وأنا أحرقك في تلك الليلة...

***

اطمأنت أنهم ناموا جميعًا، بعد أن دشت لهم المخدر في طعام العشاء الذي أصرت على تحضيره بنفسها في ذلك اليوم، ثم تسللت إلى خزانة ملابسها.

أخرجت فستانها الأبيض، الذي مزقته بعناية خصيصًا لتلك الليلة، ارتدته أمام المرآة، وأخرجت علبة زينتها بدأت ترسم بها ما يُشبه الكدمات والجروح على المناطق الظاهرة من بين شقوق الفستان، ثم زينت وجهها بزينة مرعبة، شعثت شعرها كالمجنونة.

جاءت بفانوس والدها أضافت إلى نيرانه مادة كيميائية، فتأججت بلون أخضر مرعب، ابتسمت بشر وخرجت نحو حقل محروس الضلالي في انتظار حامد.

كادت الكلاب أن تدفع خطتها للفشل، لكن الأحمق عاد للركض داخل الحقل، رأتها الكلاب فخافت وفرت بينما لم يتحمل اللعين مظهرها وأصيب بأزمة قلبية أودت بحياته، فمات قبل حتى أن تشفي نارها منه.

قررت أن تجوب أرجاء القرية، مختبئة بين أحضان سيقان الذرة، وهي تنادي باسمه بصوت ساحر مرعب لتتأكد أن الجميع قد سمعوا صوتها وأدركوا وجود نداهة، وهكذا ضمنت تمامًا أن الشكوك

ستتجه نحو النداهة، ولن يدور في خلد أحدهم وجود قاتلة حقيقية فيما بينهم!

***

تأملت ضوء القمر المتسلل عبر النافذة، ثم همست: "وهكذا انتهى الربع الأول من خطتي، وجاء دور تنفيذ الربع الثاني التخلص من الشاهد الثاني، الذي رآني ولم يُدرك ما كنت أفعله بسبب ثمالته!"

***

في غسق الليل، ارتدت نسيمة ملابسا داكنة زرقاء كسماء ليلة حزينة، ولم تنس أن ترسم على وجهها ملامح مرعبة، وقفت أمام مرآتها تضع اللمسات الأخيرة لتنكرها، قبل أن تخرج ليلًا متجهة إلى شاطئ الجزيرة.

كادت تجلس في انتظاره على الشاطئ، لكنها رأت غرزة عم علي، الذي أصبح عجوزا، لكنه لم يتخل عن مهنته بعد، وخشيت أن يخرج أحد رواده ليكشف وجودها أو يفضح سرها.

وهكذا قررت أن تغطس في الماء، وتهاجمه في عرض البحر، تظاهرت بكونها غريقة، وأخذت ترتفع

وتغوص تحت سطح الماء حتى لفتت نظره، وما إن وقف حتى يتبين ما يحدث، حتى هبطت تحت الماء، وعامت حتى دارت خلفه تسلّقت قاربه بخفة، وقد أسال الماء زينتها حتى بدت مروّعة، أكثر مما كانت في البداية شعر بوجودها والتفت ليقاومها، لكنها باغتته بالهجوم، وخنقته حتى مات بين يديها، ثم ألقت به في القارب، وهبطت لتغوص في الماء، وعادت إلى الشاطئ ومنه إلى المنزل مرة أخرى.

في الصباح، عندما استيقظ حسان، قالت إنها قد حلمت بحسن البحري ليلة البارحة، وتركت الأمر يمر بطريقة عرضية، دون أن تلفت الكثير من الاهتمام لكنها تأكدت.. أن حسن البحري سرعان ما سيصبح المتهم الرئيسي في الجريمة الثانية

***

نظرت الرضاء الذي لا يزال جاثمًا أمامها، قبل أن تقول بحزم: "وبالطبع لم أنس تدمير القاربين، لأعيق وصول الشرطة إلى هنا في الوقت المناسب، وهكذا.. تحتم علي أن أسرع قبل أن يجدوا حلًا لتلك المشكلة."

قال رضا بصوت خفيض: "وجاء دور أبو منشة."..

كررت قوله في وجوم: "وجاء دور أبو منشة."..

***

كانت قد راقبت بيومي لفترة لا بأس بها، وعرفت أنه أحيانًا ينام في حقله، ولا يعود إلى المنزل، وأنه يعبر المقابر ليلا ليختصر الطريق، وهكذا انتظرت حتى حان الوقت المناسب، وعندما أتى اليوم الموعود، كانت مستعدة تمامًا.

دست المنوم للجميع كالعادة، ولم تنس أن تزرع عدة أفكار عن أبو منشة في رأس شقيقها الصغير، مدركةً بأن لسانه سيزل بالحديث عنه أمام الآخرين، وهكذا تسللت إلى خزانة والدها هذه المرة.

ارتدت معطفه الصوفي الثقيل، وطربوشه الأحمر، لم تنس المنشة الصغيرة التي لم يستخدمها منذ أمد بعيد رسمت على وجهها شاربًا كثيفًا، وزينته ببعض مساحيق التزيين لتبدو كرجل قبيح.

ورغم خوفها.. توجهت إلى المقابر، ودخلت إحدى العيون المفتوحة، وقبعت في انتظار بيومي الذي لم يخيب ظنها، ونفذ خطتها بحذافيرها، انتظرت حتى

حان الوقت المناسب، قبل أن تندفع من العين المفتوحة لتهاجمه، حاول الهروب، لكن ضربة واحدة قوية بالهراوة الخشبية التي تسلّحت بها، كانت كافية لقتله، وهكذا تركته هناك ورحلت، بعد أن ضمنت أن شقيقها قد نشر أخبار أبو منشة في جنبات البلدة!

***

التمعت عينيها وهي تنظر في عيني شقيقها، وقالت بقسوة: "وجاء دور الشاهد الرابع والأخير، لكن هذا الجزء من الخطة كان الأكثر تحديا، ويتطلب الدقة والحذر، حيث توجب علي أن...".

***

وضعت اللمسات الأخيرة على قدمها، تأكدت من أنها تبدو مسلوخة تمامًا، تدربت على المشية العرجاء أمام المرآة، قبل أن تخرج متوجهة نحو هدفها، أصبح الأمر أسهل كثيرًا لأن الشوارع قد خلت من المارة في تلك الساعات المتأخرة، بسبب سلسلة جرائم القتل التي حدثت في جنبات الجزيرة مؤخرًا.

وصلت للغفير العجوز، وكاد يُطلق النار عليها بسلاحه، وهو الأمر الذي تناسته تماما، وهكذا تظاهرت بالعطش، لتستغل طيبته ولين قلبه، وهما أمران اكتسبهما بعد أن تاب الله عليه وتوقف عن شرب ذلك الصنف اللعين.

رفَضَ في البداية أن يسقيها أي شربة ماء، وبدأت ترحل وهي تفكر في طريقة جديدة لتنفيذ جريمتها، قبل أن يلين قلب الرجل، ويتخلى عن حذره، ويسمح لها بالاقتراب والشرب، وهكذا اقتربت منه وتمكنت من قتله، في الحقيقة.. كاد يقتلها عندما أطلق النار، لكن رصاصته مرت بجوارها تماما، حتى إن العجوز هيأ له بسبب ضعف نظره والضباب المسيطر على كل شيء أنها قد اخترقت جسدها شعرت بالخوف يجتاح روحها، لكن خوفه كان أكبر وأعتى، وهكذا.. لم يكن الأمر صعبا أبدا، فهو رجل عجوز أكل الزمان وشرب على قوته وعافيته حتى وهن. وهكذا تخلصت من كل الشهود، وانتهى الشق الأول من خطتها.

***

قاطعها قائلًا: "غير أن يبقى السؤال، ماذا عن جريمة قتل العمدة؟."

أجابته بصدق متناه: "هذه جريمة لم أرتكبها، يبدو أن أحد المقربين من الغمدة قرّر استغلال الجرائم ليخفي جريمته بين ظلالها، دون أن ينكشف سره". ابتسم وقال برضا وهذا ما توقعته، والآن.. ماذا بعد؟."

قالت: "وجاء دور القسم الثاني من خطتي، التخلص منك.. للأبد! كي أنهي عذابي وألمي".

سألها بحيرة: "لكن لماذا ورطت مروان في خطتك؟."

قالت والغضب يتطاير من بين كلماتها: "لم أورطه بل ورطته الظروف، إذا نسيت تماما أنه سيبقى حبيس قريتنا حتى ينتهي الأمر، قررت تجاهله في البداية لكنني توصلت إلى خطة أذكى، لماذا لا أستغله في مسعاي، وأضرب عصفورين بحجر واحد، أن أورطه مثلما ورطته الأقدار."

أكمل رضا جملتها قائلًا: "وتجعلينه محط أنظار واتهامات الجميع، بعد أن تقنعي الجميع بأنه وراء كل تلك الجرائم."

قالت: "لكن أولًا.. كان لابد من العبث بدماغه وإضعاف عزيمته والعبث بذكائه، وهنا جاء دور الطعام، بما أنه حبيس هنا .. فلابد من إطعامه، وهكذا بدأت أعد له الطعام بشكل يومي، دون أن أغفل عن دس مادة تدفعه للهلوسة وتمطره بالكوابيس أثناء نومه، حتى بدأ يشك في كل شيء حوله."

اتسعت عينا مروان عندما سمع تلك الكلمات، وأدرك أن كوابيسه لم تكن سوى هلاوس بفعل المواد التي دستها له نسيمة في طعامه، وتذكر أن الليلة التي غابت فيها، كانت الليلة الوحيدة التي لم تطارده فيها الكوابيس كاد يتحرك من مكانه، لكن نظرة صارمة من رضا ثبتته في مكانه.

ابتسم رضا وقال: "يبدو أن قراءتك في الكيمياء قد أفادتك في الأمر كثيرًا."

أجابته: "أكثر مما تتخيل".

صمتت قليلًا قبل أن تضيف: "لكن اللعين صمم على التحقيق في الأمر، وصمم على سبر أغوار اللغز، وخشيت.. خشيت أن يكشف سري، وهكذا قررت

أن أكسب ثقته، ثم أدفعه لقتلك، ثم أبلغ أهل الجزيرة بأنني رأيته يقتلك، وبذلك يكون هو القاتل الذي يبحث عنه الجميع."

نظرت أرضًا، قبل أن تصرخ بوحشية: "لكنه فشل في مهمته.. وفشلت خطتي بسبب فشله."

خرج مروان من خلفها، وهو يُمسك بالسكين قائلًا: لكنني لم أفشل يا نسيمة!".

نظرت له بدهشة لبرهة، قبل أن تستجمع شتات نفسها، وتقول: "مروان! دعني أشرح لك الأمر."

قال بسخرية: لا داعي لاختراع كذبة جديدة، فقد فهمت كل شيء، وعرفت كل شيء."

نظرت أرضًا، قبل أن تقول: "لكن لا يزال هناك شيء لم تعرفه". رفعت وجهها وابتسمت في وجه رضا قائلة: "ولا أنت كذلك."

قال رضا: "أي شيء؟."

قالت له برجاء: "حررني وسأخبرك بكل شيء."

قال: "لا، لن أحررك قبل أن تخبرينا."

أجابته: "ألم تدركا الأمر بعد؟."

تبادلا نظرة مليئة بالحيرة، قبل أن تقول: "ألم تدركا أنكما زوج من الحمقى."

نهضت من مقعدها، وهشمته على رأس رضاء الذي سقط للخلف في دهشة، قبل أن تهاجم مروان في وحشية، محاولة انتزاع السكين من بين يديه!

(30)

حاول مروان مقاومة هجومها العنيف، لكنها أدركت في قرارة نفسها أن هذه هي فرصتها الوحيدة والأخيرة للنجاة، وأنها إن لم تستطع انتزاع السكين من قبضته، فسينتهي أمرها تماما، ومدها هذا الإدراك بشراسة غريبة، حتى وجد مروان نفسه عاجزًا عن مقاومتها.

أمسكت بالسكين بيديها الاثنتين، وحاولت انتزاعه وهي تصرخ بشراسة تمسك بالسكين بكلتا يديه بدوره، محاولًا ضحد محاولاتها، والدفاع عن نفسه لكنه سرعان ما أدرك أنه في مواجهة من ليس لديها شيء لتخسره، وهو ما دفعه للمقاومة بعنف.

لكنها كانت أشرس وبحركة مفاجئة، ضربته بقوة بين قدميه، فانحنى.. مُفلتا السكين، وأطلق أنينًا عاليًا

يشق الصمت التمعت عيناها في شراسة لا توصف ورفعت السكين عاليا وهي تصرخ مجددًا، لكن قبل أن تهوي به على ظهره اندفع رضا كالفهد من قلب الظلام، اصطدم بها بكتفه ودفعها جانبا، ارتطمت بباب الكوخ المغلق، وأفلتت السكين.

اتكأ مروان على ركبته وهو يلهث من شدة الألم، بينما سقط رضا أرضًا على قدميه وركبتيه وهو لا يزال لم يستفق بشكل كامل من الألم الذي أصابه جراء تهشم المقعد فوق رأسه، في حين استندت هي إلى الجدار، محاولة النهوض دون أن تبعد عينيها عن السكين.

نظرت في عيني رضا، وأدركت أنه يسعى خلف نفس الشيء، هزت رأسها في تحذير له بألا يتحرك من مكانه، ولو قيد أنملة، قبل أن تندفع هي برشاقة نحو السكين، أسرع مندفعًا بدوره، ألقى بجسده أرضًا محاولا الوصول إليه قبلها، لكنهما أمسكاه سويًا، في آن واحد.

تنازعا عليه بعنف كل منهما يجذب السكين بكل ما أوتي من قوة، فجأة.. تركت نسيمة السكين، وبقوة الدفع وزخمها .. اندفع نصله نحو وجه رضا، الذي

ترك السكين وابتعد متفاديًا الضربة في اللحظة الأخيرة أغلق رضا عينيه مستسلما لمصيره المحتوم، وشعر بالدماء الدافئة تتدفق على وجهه، لكنه لم يشعر بألم الطعنة، فتح عينيه بدهشة، ليرى السكين مغروسا في عنقها، ومن خلفها .. وقف مروان يلهث في عنف.

سقطت جانبًا، جثة هامدة، وأصابعها لا تزال تتشبث بالخنجر الخشبي تبادل رضا ومروان نظرة، قبل أن يمد مروان يده ليساعد رضا على النهوض، وسأله بقلق: "هل أنت بخير؟."

أمسك رضا بكتفه المصابة وأجابه بتحفظ: "أعتقد ذلك."

تأمل مروان الجرح، وقال: "ستحتاج لرعاية طبية." تجاهله رضا وسار نحو جثّة توأمه، وضع يده على عنقها، لكنه لم يشعر بنبضها، نظر لمروان وقال بصوت متهدج: "لقد ماتت."

سأله مروان من بين أنفاسه المتقطعة: "ماذا سنفعل؟."

أجابه رضا وهو يهز كتفيه: "ستخبرهم بالحقيقة، إنها القاتلة، وجاءت لتقتلني، لكنك أنقذتني من براثنها وسأقودهم أنا إلى لأدلة التي تثبت هذه الحقيقة".

نظر إليها مروان، ومن عينيه سالت دمعة حزن على قصة لم تكتمل ربت رضا على كتفه بألم وقال: "لا تحزن، لقد تصرفت بطريقة صحيحة."

سأله مروان بنبرة تحمل وقع الختام: "والآن.. ماذا سنفعل؟."

أجابه رضا: ستخبر والدي بكل شيء، وننتظر وصول رجال الشرطة."

بعد بضع ساعات...

استفاق مروان على وقع طرقات قوية على باب غرفته، فقد عاد لمنزله واستحم ضمد جروحه كيفما اتفق تاركا مهمة توصيل الأخبار السيئة لرضا، ففي نهاية المطاف، فهم أهله، وأهل مكة أدرى بشعابها.

وعد نفسه قبل أن ينام أنه سيزور أقرب وحدة صحية لتلقى الرعاية الصحية المناسبة، بمجرد عودة القوارب للعمل، لكنها هو الآن يستيقظ على

صوت تلك الطرقات التي حرمته من نيل قسط من الراحة.

نهض مترنحًا من الإرهاق وشدة الألم، فتح الباب ليجد ضابطًا وعددًا من العساكر في انتظاره، نظر له الضابط بدهشة، وهو يسأله: "أنت مروان؟."

أومأ برأسه وأفسح لهم المجال للدخول، تأمل الضابط محتويات الغرفة، قبل أن يهز رأسه شاكرًا على الدعوة الكريمة، قبل أن يقول: "تعال لنتحدث بالخارج، إن كُنتَ لا تمانع ذلك."

وهكذا خرج مروان ليجلس على المصطبة، نظر للضابط نظرة مليئة بالفضول، فقال الأخير بصرامة: "لقد عادت القوارب للعمل منذ ساعات، وكما تعرف... كانت الأولوية لحضورنا هنا للتحقيق في سلسلة الجرائم التي حدثت في الآونة الأخيرة."

قال مروان: "لكن."...

ابتسم الضابط وقال: "أعرف كل شيء، فقد قابلت سأله مروان بقلق: "هل أخبرك بكل شيء؟."

التمعت عينا الضابط بذكاء، وقال لمروان: "ربما، الفهم الآن أن تُخبرني أنت بكل شيء، بالتفصيل الممل ودون أن تغفل أي شيء."

روى مروان كل شيء حدث بدقة، مدركًا لأهمية عدم إغفال أي تفاصيل، وأخبر الضابط بكل شيء، دون أن يخفي شيئًا.

بمجرد أن انتهى من الحديث قال الضابط: "إن ما قلته لتوك يتطابق مع رواية رضا، كما أنه أظهر لنا أدلة تثبت صحة أقوالكما، وتربط جرائم القتل بالراحلة لكنه أخبرني أنك من قتلها."

قال مروان بسرعة وقد صبغ الخوف كلماته: "دفاعًا عن النفس والله!".

ابتسم الضابط وقال: "وأخبرنا بهذا أيضًا".

ثم أشار إلى الجروح التي تملأ جسد ووجه مروان، وقال: "إن حالتكما الصحية أنت ورضا تعزّز قصتكما، وشخصيًا... أعتقد أنكما محقان، لكننا سنضطر آسفين للسماح لطبيب من طرفنا بإجراء كشف طبي بسيط عليك قبل أن ترحل."

أشار الضابط لطبيب شاب تقدم من خلف العساكر ليفحص مروان الذي قال في دهشة مستسلمًا للطبيب: "أرحل؟."

قال الضابط: "المفروض أن يتم التحفظ عليكما لحين انتهاء التحقيق، لكن نظرًا لقوة الأدلة، وحالتك الصحية، سأسمح لك بالرحيل، بضمان محل إقامتك."

انتهى الضابط من فحصه السريع، وتبادل عدة كلمات مع الضابط قبل أن يقول الأخير المروان: "مبروك يمكنك الرحيل بعد أن تأتي معنا إلى القرة قول لتحرير المحضر، وترك بياناتك لدينا في حال احتجنا لاستدعائك".

صمت للحظة قبل أن يسأله: "هل أنت جاهز؟."

أجابه مروان: "سأحزم أمتعتي سريعًا."

قال الضابط: عظيم، سننتظر أن يأتي بقية العساكر برضا، ثم سنرحل في أقرب قارب عائد."

هز مروان رأسه، ودخل إلى غرفته - بصحبة أحد العساكر - ليجمع بقية أشيائه.

***

تقابل رضا ومروان للمرة الثانية بصحبة الضابط وعساكره أمام شاطئ الجزيرة، بانتظار وصول القارب الذي عاد للبر ليأتي بمزيد من الأشخاص، ارتدى رضا ملابس ثقيلة ليخفي ملامحه وغطى وجهه بوشاح صوفي ثقيل، وارتدى قفازا ليخفي يديه المحترقتين لكن مروان تعرفه على الفور.

اقترب القارب من الشاطئ، لا يحمل على متنه - بالإضافة للمراكبي الشاب الذي لم يكن سوى إبراهيم ابن شقيق عم سليم، رحمه الله سوى رجل وحيد ملتح طويل الشعر، وبشوش الخلقة، يرتدي جلبابا أزرق اللون، ووشاحًا أخضر، يداه مليئتان بالسبح ذات الأحجار الكريمة والألوان الزاهية، لكن عيناه التمعتا بشر خالص لا حدود له.

سأل مروان أحد العساكر بهمس: "من هذا؟."

أجابه العسكري: "هذا شحتة الدجال، يقولون إن والده من بني البشر، لكن والدته ليست سوى نفر من الجن، ويقولون إنه جاء إلى هنا ليساعد أهل الجزيرة في كشف سر جريمة مقتل العمدة."

وصل القارب، وهبط الدجال متكئا إلى عصاه، قابله الضابط، وقال بلهجة مليئة بالتحذير: "لا تتدخل في عمل الشرطة يا شحتة."

قال شحتة وهو يرفع يديه عاليا: "حاشا لله يا حضرة، ما جئت إلى هنا إلا إرضاء للأسياد."

قال الضابط وهو يستعد لركوب القارب: "وأخير الأشياء ألا يتدخلوا في الأمر أيضًا."

ابتسم شحتة دون أن ينطق بكلمة.

ثم استدار ليواجه مروان ورضا نظر إليهما لبرهة قبل أن يقول: "لنا لقاء آخر يا مروان أنت ورضا."

وقبل أن يستوعب أيهما الطريقة التي عرف بها اسميهما، رحل وتركهما وهو يقول بصوت عال: "حي قولوا لقاتل العُمدة الشيخ شحتة جي!

اجعل كلامنا خفيف عليهم يا رب."

ﷺ

فصل إضافي(2)

عاد مروان للقاهرة، وبمجرد أن نال الرعاية الطبية اللازمة، قدم طلبا رسميًا بالاعتذار عن استكمال

عمله بالقرية، قاطعا كل علاقاته بكل شيء يربطه أو يذكره بأي شيء مما حدث في تلك الأيام المروعة.

آخر ما عرفه أيضًا هو أن رضا قد هجر والديه، وأنه يعيش هنا في القاهرة، لكنه لم يعرف عنه أي شيء آخر، لا يريد ذلك، ولم يسع إليه يومًا.

واستمرت حياته هادئة هانئة حتى جاءه يومًا تليغراف من مجهول مكتوب فيه: (الساكت عن الحق شيطان أخرس، وعقابه الانتقام).

اجتاح الخوف قلبه وفكر في إبلاغ الشرطة، لكنه فكر ماذا لو أن الأمر مجرد مزحة ؟ وأن هناك مهرجا ما يرسل برقيات عشوائية بغرض زرع الخوف في قلوب الحمقى مثله؟

وهكذا قرر تناسي الأمر بشكل تام.

في نفس اليوم مساءً، استيقظ على صوت طرقات خافتة على باب شقته استيقظ فرعًا، وتسلل بخطوات بطيئة إلى المطبخ، ليتسلح بسكين، قبل أن يسأل هامسا من خلف الباب: "من؟."

جاءه رد هامس: "افتح."

عرف الصوت على الفور، فوضع سكينه جانبًا، قبل أن يفتح الباب ليدخل رضا الملثم كعادته ليخفي تشوهات وجهه، ظهرت على وجه رضا أمارات الفزع

سأله مروان: "ما الأمر؟."

قال رضا بصوت مرتجف: "لقد وصلتني برقية مخيفة!".

اتسعت عينا مروان في خوف وهو يقول: "أنت أيضًا؟."

ارتجف رضا وهو يقول: "هل وصلتك البرقية بدورك؟

هل تعرف ما يعينه هذا ؟."

أجابه مروان بفضول: "ماذا؟."

قال رضا بصوت متهدج: "أن هناك من يعرف أماكننا ويسعى إلينا."

وقبل أن يفهم أيهما أي شيء.. انقطع التيار الكهربائي، وساد الصمت تمامًا، وبعد لحظات.. شق صوت جهوري الصمت وصاحبه يقول: "حي! انطق الشهادة عشان أنا جي!".